رواية



صائد الساحرات

منذر القباني

صائد الساحرات

د . منذر القباني

١

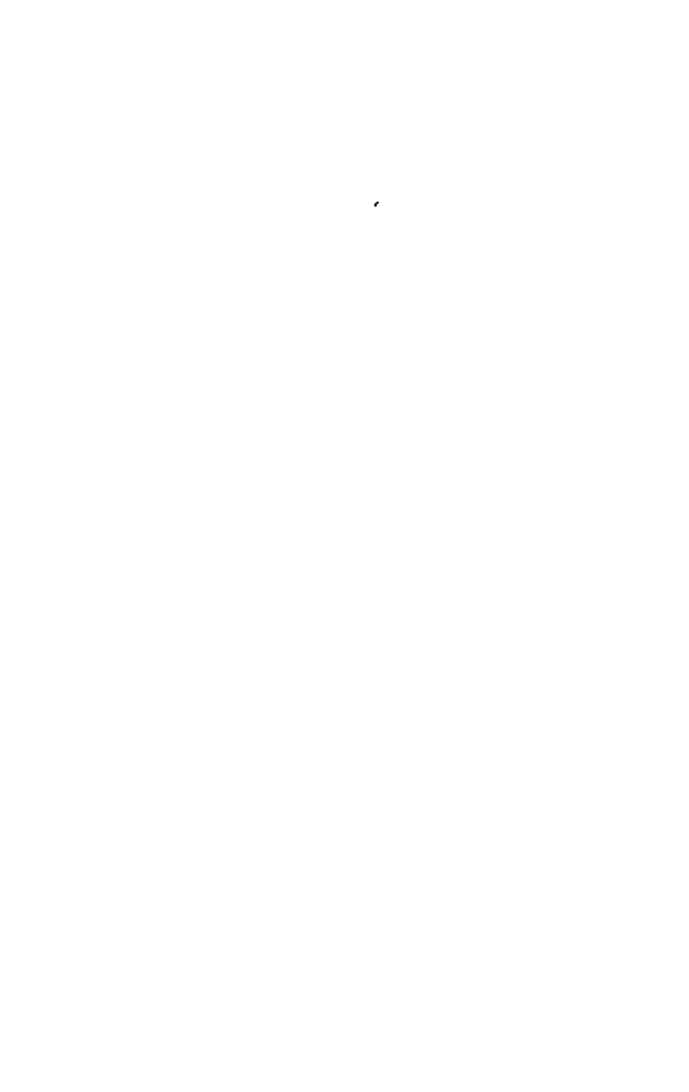
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قال الساحر العظيم لخدامه، وأتباعه

المتربعين من حوله:

"السحر حاله كحال بيت العنكبوت: كلما

تشابكت خيوطه، كان وقعه أشد أثرا...."





حقا لا أعلم كيف وصلتُ إلى هذه القاعة الوثيرة ضمن خمسة روائيين يتنافسون على الجائزة الكبرى للرواية العربية، ولكنّه قد حصل كما وعدني تركي! لم أتخيل قط بأنّ رواية سخيفة مثل هذه ستحصد كل هذا النجاح، وإن كنت أنا كاتبها! كأنّني في قرارة نفسي رغبت بأن تفشل، حتّى أعود إلى نهجي السابق، الذي كان يرضيني، وإن لم يحالفني النجاح. ثلاث روايات كتبتها بمداد كياني، قبل هذه الرواية المسخ، ووضعت فيها عصارة وجداني، ومع ذلك مجموع النسخ التي وُزّعت منها لم يتجاوز التسعين! ثمّ تأتي هذه الرواية الّتي كتبتها على عجالة بعد تردّد كبير، بناء على إصرار تركي، ويباع منها نصف مليون نسخة في أقل من سنة، وهذا فقط باللغة العربية، ثم تصل إلى القائمة القصيرة لجائزة الرواية العربية! لا أدري إن كان العالم قد جُن، أم أنّني ما عدت أفهم شيئا؟! «صائد الساحرات».... لعل هذه هي نوعية الروايات التي أجيد كتابتها، وإن كنت بحق لا أفهم شيئا مّما كتبت؛ فأنا لم أقرأ قط في حياتي رواية بوليسية، كما أنني لم أهتم في يوم بالسحر، ومع ذلك كتبت «صائد الساحرات»! لماذا اختارني تركي لكي أكتب هذه الرواية بعد أن أمدّني بفكرتها؟ لعلّه شعر بالشفقة تجاهي بعد تكرار فشلي المرة تلو الأخرى.



لا أذكر أنني سبق، وأعطيته نسخة من أعمالي السابقة، فكم تفاجأت عندما تواصل معي في جدة.. يا لها من أيام تمضي مسرعة..كان ذلك منذ عام ونصف؛ كنت حينها قد بلغت قمة الإحباط؛ شعرت وكأنني أعيش في عالم لا يفهمني، ولا أفهمه....

- «أنت روائي متميز، ولكن ينقصك بعض التوجيه».

أذكر لقاءنا الأول جيداً، بمقهى الأندلسية، وما دار فيه من حديث غيّر مسار حياتي إلى الأبد!

- «ماذا تقصد ببعض التوجيه؟»

- «المواضيع التي تكتبها لا تناسب القارئ العربي، وخاصة في زمن تويتر، وفيسبوك، وباقي مواقع التواصل الاجتماعي... نحن نعيش زمن الإيقاع السريع، والمواضيع المثيرة. أما الفلسفة، والرمزية، والغوص في مكنون النفس البشرية وهواجسها، فكل هذا لا يتماشى مع المزاج العام؛ المعذرة أنا لا أقصد أن أقلل من قيمة كتاباتك السابقة، ولكن إن أردت أن تصل إلى القارئ العربي فعليك أن تجري بعض التعديلات، وتستمع إلى نصائحي، وأنا أعدك بأن تصبح الروائي الأكثر مبيعاً لرواياته على مستوى العالم العربي، وإن رغبت في الحصول على جائزة الرواية العربية، فهذه أيضاً في الإمكان».

حقًا لقد فاجأني! الروائي الأكثر مبيعا لرواياته؟! جائزة الرواية العربية!!

- «هناك شيء لا أفهمه... لو كان الأمر بهذه السهولة، فلماذا لم تفعلها مع أحد الروائيين الذين ينشرون أعمالهم معك؟»

- «نحن في دار النشر نبحث دائما عن الكُتّاب المتميزين من أمثالك، لكي نساعدهم حتى يصلوا إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه بناء على قدراتهم، وضعْ ثلاثة خطوط تحت كلمة قدراتهم. ليس كل روائي لديه موهبتك، وهذه حقيقة، وليست مجاملة. أنا في تقديري الخاص، أنه بإمكانك أن تصبح أهم روائي في العالم العربي».

- «أهم روائي في العالم العربي؟!»

لا أنكر أنني في لحظة شككت في أن يكون هذا اللقاء عبارة عن مقلب دبّره لي أحد الأصدقاء، على سبيل الدعابة، ولكن سرعان ما أزحت تلك الخاطرة عن بالي؛ فتركي الزايدي ناشر معروف، كما أن دار نشره قد حازت على العديد من الجوائز على مستوى العالم العربي. لعلّه فعلاً رأى في شخصي شيئًا لم يره الآخرون.

- «وربما حتى في العالم؛ لمَ لا؟! نحن لا ينقصنا شيء حتى نصل إلى العالمية كما فعل كتاب كثيرون من كافة أصقاع الأرض!»

- «ولكن كيف؟»
- «هذا هو السؤال.. والإجابة: صائد الساحرات».
- «صائد الساحرات؟»
- «من المؤكد أنك تعلم كيف تُصنع الرواية في العالم المتحضر.. مشروع متكامل، قائم على جهد جماعي، وليس على جهد فردي كما هو الحال لدينا في العالم الثالث، ولذلك الروايات الّتي تصدر في الدول المتقدمة هي أكثر نضجاً، وتُصادف رواجا كبيراً، وتتم ترجمتها إلى لغات عديدة، ويستحوذ كُتّابها على الجوائز العالمية. لذلك ليس مستغرباً أن يكون حال الرواية العربية على ما هو عليه من سوء».

كلام تركي عن حال الرواية العربية مقارنة بمثيلاتها في الغرب والشرق لم يكن فيه شيء جديد، وجزء كبير من المشكلة يكمن في دور النشر لدينا الّتي لا تريد أن تستثمر المال في صناعة المحتوى المتميّز؛ مكتفية فقط بطباعة، وتوزيع الكتاب، وفي الغالب على حساب المؤلف؛ لكن ما أثارني في حديث تركي أنه صادر عن ناشر عربي، وكأنه يعترف لكاتب مثلي بأوجه قصوره!

- «لذلك نحن في دار النشر قرّرنا أن نغيّر المعادلة؛ وبعد دراسات مستفيضة أجريناها في عدّة دول عربية حول عزوف الكثيرين عن القراءة، وطبيعة القليلين الذين يقرؤون،

والمواضيع الّتي قد تثير اهتمام القارئ، وغير القارئ، وكذلك الأسلوب الأقرب إلى طبيعة العصر، خرجنا بنتيجة مثيرة نرغب في اختبارها؛ وقد وقع عليك الاختيار بعد دراسة إنتاج عدد كبير من الروائيين العرب الموجودين في الساحة اليوم».

- «مازلتُ لا أفهم ما الذي تريده منّي».

- «أريدك أن تكتب رواية، وضعنا لك في دار النشر خطوطها العريضة وفق معايير دقيقة على خلفية الدراسة الّتي أجريناها».

- «صائد الساحرات؟»

- «نعم، هذا هو العنوان المزمع للمشروع الروائي، والذي أيضاً تم اختياره بشكل دقيق. أنا واثق من أن الرواية سوف تحدث نقلة كبيرة، بل ثورة في الرواية العربية، وستجعلك أهم روائي في العالم العربي، وستجعلك تقفز نحو العالمية!»

- «هي رواية عن السحر؟»

- «نعم، ولكن بطريقة مبتكرة، وغير اعتيادية. لا تستعجل في الحكم، وتحسبها رواية مبتذلة... لا، على الإطلاق، بل هي جديدة من نوعها تماماً».

- «ولكن لماذا اخترتني أنا؟ إن كنت قد قرأت أعمالي السابقة،

فلعلك تدرك أنني أبعد ما يكون عن مثل هذه المواضيع، والأسلوب الذي تقتضيه».

- «بل أنت الشخص الأنسب؛ أنت لا غيرك، بأسلوبك المتميز الذي سوف يصنع لهذا العمل النجاح المطلوب. صدّقني يا عزيزي، اختيارك لم يأتِ اعتباطاً؛ ولأنني واثق من النتيجة مقدماً، فسوف نتعاقد معك في دار النشر على غرار دور النشر العالمية: عشر بالمئة من ثمن الغلاف للكتب المباعة، وسوف تحصل على نصفها مقدماً عند توقيع العقد بناء على تقديراتنا لكمّ المبيعات في السنة الأولى من الإصدار».

- «أنتم كذلك قدّرتم عدد النسخ المتوقع بيعها لهذه الرواية التي لم تُكتب بعد؟!»

- «طبعاً، ألم أقل لك: إننا أجرينا دراسة مستفيضة!»

أعترف بأنّ حديث تركي قد أثار انتباهي، وقد شعرت لأول مرة، منذ بداية مشواري الأدبي، بشيء من الاعتداد بالنفس، لأنه وقع الاختيار عليّ أنا، دوناً عن غيري من روائيين كثيرين شهيرين. أخيراً وجدت من يقدّرني كروائي، وإن كنت قد تمنيت أن يكون هذا التقدير حول ما كتبته سابقاً، وليس حول ما يزمع الناشر أن أكتبه بناء على معاييره الخاصة، حتى وإن كانت نتاج «دراسة مستفيضة» على حد تعبيره؛ ولكنّ الإثارة وصلت إلى ذروتها عندما سمعت منه عدد النسخ المتوقع بيعها في السنة الأولى من الطرح....



لوهلة ظننته يمزح، أو يبالغ، أو يتوهم! فمثل هذه الأعداد غير مسبوقة في عالمنا العربي الّذي يعاني من شح في بيع الكتب! مستحيل!

- «ما لا يقل عن مائتي ألف نسخة، وهذا تقدير جداً متحفظ».

ردّة فعلي الأولى كانت أن أطلب منه إعادة تكرار ما قال... هل سمعته جيداً؟! هل فعلا قال مائتا ألف نسخة؟!

- «لا تتعجب... قلت لك: إنّ هذه الرواية سوف تُحدث نقلة نوعيّة على جميع الأصعدة؛ والأمر لا يتعلق فقط بعدد المبيعات، وأعدك بأنها ستحصد عدة جوائز عربية، وعالمية بعد ترجمتها إلى العشرات من لغات العالم الحيّة. يا عزيزي، نحن على وشك إحداث ثورة لم يشهد لها الأدب العربي مثيلا! وأنت الذي سوف يقود هذه الثورة عبر رواية صائد الساحرات!»

- «أنا؟!»

- «ها... ما قولك؟ نُحضر العقد، والشيك بمبلغ المقدم؟ الرواية سوف تُسعَّر بخمسين ريالا، على أساس عدد صفحات لا يقل عن ثلاثمائة، ولا يزيد عن أربعمائة صفحة؛ بذلك يكون مبلغ الشيك الذي سوف تحصل عليه مقدماً هو...».

- «خمسمائة ألف ريال!»



أكملت له الجملة دون أن أشعر! نصف مليون ريال مقدم رواية!! وإن بيع منها مائتا ألف نسخة في السنة الأولى، كما هو مقدر، فسوف أحصل على خمسمائة ألف ريال أخرى! لو لم أكن متيقنًا من شخص تركي الزايدي، كناشر معروف، لظننت الأمر مزحة كبيرة، أو مقلبا سمجا أعده لي أحد الأصدقاء!

لقد أغراني تركي بكل ما عرضه عليّ: الشهرة... المال- المجد! كيف لي أن أرفض عرضا كهذا؟ مستحيل.. أكون أحمقا إن فعلت!

***

من تذوق طعم الفشل المرير، المرّة تلو الأخرى، فحتمًا سوف يدرك سبب موافقتي على أمر ما كنت على قناعة به، من أجل أمل تذوق طعم النجاح، ولو للحظة عابرة. لقد سئمت من الفشل المتكرر... سئمت من عزوف القرّاء عن كل ما أكتب؛ والأسوأ منه تجاهل النقّاد لي، وكأنني كائن غير موجود، لا وزن، ولا قيمة له!

عندما شرعت في كتابة أول رواية، كان كلّي أملا أن أصبح روائيًا عظيمًا. شعرت بأنني أكتب عملاً مهمًا، سوف يحظى بنجاح مستحق، إن لم يكن على نطاق الجماهير، فكانت تكفيني حفاوة النقاد؛ ولكنني لم أحظ لا بهذا، ولا ذاك! الرواية الثانية لم تكن أوفر حظًا، وكذلك الثالثة. كنت يائسًا عندما أتاني تركي الزايدي، وعرض عليّ مشروعه العجيب، فما كان بوسعي أن أرفض. هل خنت نفسي، أم أنّ الناس خانوني؟



أذكر كيف نهرتني خطيبتي رجاء عندما أخبرتها بأنني أعدّ لرواية ثالثة، بعد فشل الرواية الثانية..

- «كفّ عن هذا الهراء وركّز في عملك!» قالتها لي دون مواربة، بعد أن فاض بها الكيل. لعلّها استاءت من عدم ارتقائي في السلّم الوظيفي، بخلاف الكثيرين من زملاء الدراسة الذين وصلوا إلى مراتب أعلى من التي كنت عليها. كأنها لم تكن تعلم بأن الأمر لا علاقة له بالكفاءة، بل بلعبة العلاقات الاجتماعية التي لم أجدها في يوم من الأيام. الأدب كان دائمًا ملاذي الذي ألجأ إليه من أجل تفريغ همومي. صفعات الحياة كنت أداوي آثارها عبر ما أكتب. من غير الكتابة حتمًا كنت سأنفجر. حاولت أن أشرح لها أن الرواية هي ملاذي، وحصني الأخير الذي من خلاله أقاوم كآبة إحباطات الحياة المتكرّرة... ولكن رجاء، مع الأسف، لم تتفهّم؛ وبعد أيام أخبرني والدها عبر الهاتف، بأنّها ترغب في فكّ ارتباطها بي.. «كل شيء قسمة، ونصيب» ؛ ونصيبي ألا أصبح زوجًا لابنته... إحباط جديد، من ضمن سلسلة إحباطات حياتي. لكن لا بأس، طالما قلمي يُسطّر الحروف والكلمات، أسوار حصني ستظلّ قائمة.. لكنّ هذه الأسوار بدأت تتلاشى بعد فشل الرواية الثالثة؛ فهل من المعقول أن أخسر كل شيء؟ أن أكون لا شيء؟! حاولت هذه المرّة أن ألعب لعبة العلاقات



العامة. ذهبت بنفسي إلى الصحف المحليّة، وأهديت نسخًا من روايتي الجديدة إلى رؤساء التحرير، ومُحرِّري الصفحات الثقافية، على أمل أن أجد تغطية للرواية عبر مقالة تُكتب، أو حتّى خبر صغير؛ ظللت أنتظر، فطال انتظاري دون طائل. جاء معرض الكتاب بجدة، والناشر الّذي أطبع عنده على حسابي الشخصي، لم يعرض في منصّته سوى خمس نسخ من كل رواية، لم يبع منها نسخة واحدة... العجيب أن الناشر عرض كتابًا نشره على حسابه، لشخص لم أسمع به يُدعى «المكبوس»، باع منه عشرة آلاف نسخة! والأدهى أن جميع الصحف تحدثت عن هذا الكتاب، وصاحبه الّذي عرفت أنه شخص مشهور عبر مواقع التواصل الاجتماعي. اطلعت على هذا الكتاب الذي كان حديث المعرض، لكن أرى ما الذي يميّزه، ويجعل الناس تقبل عليه بهذه الحفاوة، فوجدته لا يعدو عن كونه تجميعاً لخواطر، وتغريدات تتحدث عن لا شيء! مجرد كلام من أجل الكلام، لا يعالج قضية، ولا يطرح فكرًا... حينها فقط أدركت لماذا فشلت رواياتي، ولماذا لم يكتب عنها أحد... إنني ألعب في الزمن الضائع لعبة لم يعد أحد يلعبها، أو حتّى يدرك قوانينها! فقرّرت أن أوفّر مالي، وأكفّ عن نشر كتاباتي؛ يكفيني أن أكون أنا قارئي الوحيد، وليذهب الجميع إلى الجحيم! هنا



لهم «المكبوس» ، فهم لا يستحقون سواه! وظللت على هذا الحال حتى ظهر تركي الزايدي في حياتي، ليُغيّر كل شيء... نعم، كل شيء؛ حتّى بتُّ لا أعرف نفسي.

***

يعتلي لهاد الطوخي الآن منصة التقديم، لكي يلقي بخطابه قبل إعلان اسم الرواية الفائزة بالجائزة الكبرى. كان من المفترض أن يكون رئيس لجنة التحكيم، سعود العازمي، هو المتواجد، وليس رئيس مجلس أمناء الجائزة، ولكنّه لسبب مجهول استقال بعد أسبوع من إعلان لائحة القائمة القصيرة. تعددت الأقاويل، ولكنّها ظلّت مجرد أقاويل، دون تأكيد من أي أحد عن سبب الاستقالة المفاجئ. لعلّه ندم على اختيار روايتي «صائد الساحرات» في القائمة القصيرة! لا أعلم إن كان هذا هو السبب، فلو كنتُ مكانه لما اخترتها. حقًا لا أعلم كيف تم اختيار هذه الرواية البلهاء ضمن هذه القائمة المتميّزة؟! لا أستبعد إن كان الروائيون الأربعة الآخرون يتعجبون مثلي. لكم كنت أتمنى لو أن إحدى رواياتي الثلاث الأولى هي الّتي وصلت إلى القائمة القصيرة؛ ولكن هيهات، فالكل يظنّ أنّني لم أكتب سوى «صائد الساحرات»!

من يا ترى سوف يفوز بالجائزة اليوم؟ أتمنى أن يحصل عليها أحمد خريف. روايته جميلة، وإن كانت مأساوية. مسكين هذا الرجل؛ أشعر وكأنه محبط مثلي، وإن كان لسبب آخر. حتّى

وصول روايته إلى القائمة القصيرة من الجائزة، لم يزح عنه الهم الذي أستشعر ملامحه من نبرات صوته عندما يتحدث، وكأنّ أنينًا في نفسه لا يريد أن يفارقه. أظنّه من تلك الفئة الّتي كانت تحلم بنجاح الربيع العربي، وظنّت أن عالمها سوف يتحول إلى الأحسن، لتكتشف بعد فوات الأوان مدى فداحة ذلك المعتقد، وأن الربيع العربي لم يكن سوى وهم، وسرابا أحببت أحمد خريف، وأحببت روايته، وأظنّها الأحق بالفوز الليلة. لكن لدي شعور بأن رقية الموسى هي الّتي سوف تحظى بها. أرجو أن يكون شعوري خاطئًا؛ فروايتها، وإن كانت أفضل بكثير من «صائد الساحرات»، لا تستحق الفوز. كما أن شخصيتها المتعالية أراها جدًا منفّرة. تظن نفسها أفضل من كتب الرواية. كما أن حديثها لا يكاد يخرج عن دائرة صراع المرأة الخليجية ضد سطوة الرجل! لا أدري لماذا كلّما حاولت التحدث معها، تصرفت معي، وكأنّ لديّ غرضًا دنيئًا من التحدّث معها. ربما لأنني سعودي... لعلّها تظنّ أن جميع رجال السعودية ليس لهم هم في هذه الحياة سوى أخذ أية امرأة يصادفونها إلى الفراش! إنسانة متغطرسة بحق، ولا تعجبني شخصيتها، ولن يزيدها فوز روايتها بالجائزة الكبرى سوى المزيد من الغطرسة! لكنّها حتما سوف تفوز الليلة مع الأسف، وتكون بذلك أول امرأة تحصل عليها. الذي تلمّسته من وجودي هنا في دبي مع الكتّاب، والصحفيين، أن بوصلة القائمين على الجائزة



تتّجه نحو منح الجائزة لامرأة خليجية، ورقية هي المرأة الوحيدة ضمن القائمة القصيرة الّتي تضم أربعة رجال: أنا، وأحمد خريف، وسعيد السعدولي، وخليل فضل الله. هذا الأخير، حتمًا لن يفوز بالجائزة. فهو دائمًا ما تصل رواياته إلى القائمة القصيرة، ولكنّها لا تفوز أبدًا. قرأت جميع رواياته، وكلها تدور في الإطار ذاته حول مأساة الشعب الفلسطيني؛ الحق يقال إنّ أعماله الأخيرة أصبحت مملّة جدًا، ولا يوجد فيها أي جديد. لا أدري كيف وصلت روايته هذه إلى القائمة القصيرة، وإن كان العجب يتلاشى بعد وصول رواية «صائد الساحرات» إلى القائمة ذاتها. فكل شيء في هذه الحياة قد أصبح ممكنًا!

أظنّ أن سعيد السعدوني لديه هو الآخر فرصة جيدة، مثل مواطنته رقية الموسى، للظفر بالجائزة الكبرى. روايته جيدة، ومؤثرة. أظن بأن لجان التحكيم تحب مثل هذا النوع من الروايات الّتي لا يوجد فيها عمق كبير، ولكنّها تناقش قضايا حسّاسة، بلغة جميلة تقليدية. مسكين صديقي أحمد خريف، فحتمًا لن تفوز روايته الليلة، وإن كنت أرى بأنّها الأجدر بين الروايات الخمس؛ لكن الحياة هكذا، لا تعطي من يستحق، وتغدق على من لا يستحق.. أظنّ أن أحمد يدرك الأمر جيدًا، ولذلك منذ أن التقيته هنا في دبي، وهو دائمًا ما يردد إنّ الجائزة هذا العام سوف يحصل عليها روائي خليجي. بالطبع هو لا يقصدني أنا، ولكنّه

يقصد إمّا رقية الموسى، أو سعيدا السعدوني. لو كان الخيار فعلاً بين أحدهما، فحتمًا سعيد عندي أرحم!

- «إنّها رواية السهل الممتنع، الّتي رأت لجنة التحكيم أنّها أحدثت تغييرًا لمفهوم الرواية العربية، لتنقلها نحو العالمية، بمزجها بين العمق، والمتعة؛ اللغة الجميلة، والسهلة في الوقت ذاته...».

ها هو نهاد الطوخي يستعد لإعلان اسم الرواية الفائزة. لا بدّ من هذه الديباجة الطويلة، والمملّة... لا أدري لماذا لا يعلن عن اسم الرواية دون مقدمات... كأنّه يتحدث عن رواية سعيد السعدوني... الحمد لله، على الأقل لن تفوز بها رقية الموسى.

- «صائد الساحرات للروائي السعودي...».

مستحيل!!



- «مبروك أيها الروائي العظيم الفذ! ألف مبروك!! والله كنت على ثقة بأنك سوف تفوز بالجائزة الكبرى!»

لا أدري إن كانت ثقة تركي نابعة عن إيمان بما كتبته، أم لأنه ربما لعب دوراً كبيراً من أجل أن أنال الجائزة؛ فهذا الرجل لديه علاقات واسعة لم أشهد لها مثيلاً من قبل، وإن كنت أنا لست الخبير في مثل هذه الأمور.

- «كنت أتمنى أن أكون حاضرًا معك ليلة البارحة، وأنت تستلم الجائزة، لكي أشاطرك الفرحة، ولكن والله ظرف طارئ اضطرني لمغادرة دبي في آخر لحظة».

- «لا تحمل هما.. كأنّك كنت موجوداً؛ أو بالأحرى، روحك كانت حاضرة في الحفل».

- «هل فكّرت في روايتك القادمة؟».

- «جميل أنك فتحت هذا الموضوع... كنت أفكّر في أمر ما، ولعلّ الأوان قد آن بعد كل هذا النجاح الباهر.. لماذا لا نعيد طباعة أعمالي السابقة، حتى نعطي فرصة للقراء للاطّلاع عليها...».



لم يدعني تركي أكمل حديثي، وعلى الفور أخذ يقاطعني:

- «خطأ كبير إن فعلنا، قد يعيدنا خطوات إلى الوراء يا صديقي. أنت الآن أصبحت علامة تجارية، وليس مجرد روائي ناجح. صدّقني، عادةً هذا أمر في غاية الصعوبة تحقيقه. نحن مازلنا في بداية الطريق. لا تتصور كمّ الطلبات التي أتتنا من المكتبات في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة لصائد الساحرات. توقعات إدارة التسويق أننا سنتجاوز المليون نسخة على نهاية العام! هذا رقم غير مسبوق في الرواية العربية، ولا توجد رواية تقترب حتى من هذا الرقم! لذلك يجب أن تكون خطوتك القادمة محسوبة بحذر شديد، وإلاّ فقدنا كل الذي عملنا من أجله».

- «لا أفهم ماذا تقصد. ألم تخبرني بأنك قرأت رواياتي السابقة، وأعجبت بها؟»

- «رواياتك السابقة على العين والرأس، ولكنها لا تصلح للعلامة التجارية التي صنعناها لك».

- «أية علامة تجارية يا تركي؟! نحن لا نبيع أجهزة منزلية!»

- «الكتاب سلعة يا صديقي، وأنت أصبحت الآن صاحب سلعة رائجة، بل رائجة جدًا، وبالتالي اسمك أصبح علامة تجارية يجب مراعاتها، والحفاظ عليها، وتنميتها.. على العموم



أنا قادم بعد غد إلى دبي. سوف أتحدث معك حيلها عن فرصة مهمة للغاية، أراها سوف تنقلك نقلة كبيرة إلى مستوى أعلى، وتجعل منك أسطورة!»

أسطورة؟! لقد أثار فضولي تركي، هو وأفكاره المجنونة.. ولكن..

- «أنا بعد غد راجع إلى جدة».

- «أعلم، ولكن رحلتك في المساء. نستطيع تناول الغداء سويًا قبل سفرك، ومن ثم تنطلق إلى المطار. لا تحمل همًا، فلن تفوتك الطائرة».

يبدو وكأن لا شيء يخفى على تركي الزايدي. لا أدري كيف علم بموعد الرحلة، مع أنني قمت بتغييرها من الصباح إلى المساء منذ ساعة فقط؟! هذا الرجل لا تنقطع عجائبه! حسنًا، فلنرَ ماذا لديه في جعبته لي من أفكار جديدة؟ لعلّي في الرواية القادمة أصطاد الجنّ، والعفاريت... مع الأسف لقد تجاوزت الآن مرحلة العودة، بعد أن تذوقت طعم كل هذا النجاح. لا أستطيع الرجوع إلى ما كنت عليه سابقًا من التجاهل، والنكران، والإهمال.. حتمًا لا أستطيع!



منذ أن شرعت في كتابة هذه الرواية الّتي أصبحت لا أعرَف إلا بها، وأنا لا أنام إلا سويعات قليلة. أصبحت مرهقًا طيلة اليوم، حيث لم أعد بذلك النشاط الذي كنت عليه سابقًا. ويبدو أنني من كثرة الإرهاق أصبحت أتخيل أمورًا ليس لها وجود؛ وساوس، وتهيّؤات أدرك حينًا أن ليس لها أساس، آخرها كان ليلة البارحة عندما استيقظت من نومي في منتصف الليل ظنًا أن باب غرفتي في الفندق قد فُتح. قفزت من السرير على الفور، وأشعلت الأضواء، ثم أخذت أبحث في أركان الغرفة، والحمّام... وحتى تفحّصت باب الغرفة لكي أتأكد إن كان قد فُتح بالفعل، ولكنّني لم أجد شيئًا سوى دليل آخر على تزايد وساوسي، والحالة المزرية التي أصبحت عليها! فهذه لم تكن سوى مرّة من مرّات عديدة ينتابني فيها شعور بأنني لست وحدي في المكان الذي من المفترض أنّي فيه بمفردي، وكأنني مراقب من جهة ما! هذه الرواية الملعونة قد جلبت لي الشهرة والمال، ولكنّها في المقابل تكاد تسلبني عقلي!

***

كان يومًا حافلا باللقاءات التلفزيونية، والصحفية. ثم دعيت إلى العشاء في منزل رئيس مجلس أمناء الجائزة، نهاد الطوخي، مع أعضاء لجنة تحكيم الجائزة، والروائيين الآخرين الذين وصلوا إلى القائمة القصيرة. كانت سهرة لطيفة، في منزل يدلّ على ثراء صاحبه؛ ولكنّ أعجب ما في الحفل كان التغيّر المفاجئ الّذي لمسته من رقيّة الموسى تجاهي؛ وقد ظهرت بدون خمارها المعتاد، تاركة شعرها الأسود منسدلاً على كتفيها؛ شكل ومظهر جديد، «نيو لوك» لا أدري ما سببه...

بقدرة قادر أصبحتْ في غاية اللطف معي، وكالت بالمديح على «صائد الساحرات» ؛ كما أخبرتني كيف تنبأت بفوزها لأنها الرواية الأجدر بين الروايات الخمس الّتي وصلت إلى القائمة القصيرة! يا سبحان اللّه! وأنا الّذي كنت أحسبها صاحبة مبدأ... لا أظنّها على الإطلاق صادقة في مديحها، خاصة وأنها روائية جيّدة؛ فمثلها لا يمكن أن يعجب أبدا بمسخ روائي مثل «صائد الساحرات»!

أثارني الفضول أثناء تواجدي في منزل نهاد الطوخي، إذ سألته عن سرّ استقالة سعود العازمي المفاجئة من رئاسة لجنة التحكيم، ولكنني لم أحصل منه على إجابة شافية. يبدو وكأن السبب محرج له، وللقائمين على الجائزة، ولذلك لم يرغب في الإفصاح عنه؛ أو ربما أكون أنا وروايتي السبب، ولم يرغب في



تعكير صفوة فرحتي بنيل الجائزة الكبرى. لا أستبعد أبدا أن يكون هذا هو السبب الخفي لاستقالته، ولا ألومه على ذلك؛ فلو كنت مكانه لاستقلت أنا الآخر إن وصلت رواية مثل «صائد الساحرات» إلى القائمة القصيرة؛ ولكنت استقلت من قبلها، عندما وصلت إلى القائمة الطويلة!

مضت اللّيلة، وانتهت السهرة، ثم ذهبت إلى غرفتي في الفندق، ولم أنم سوى أربع ساعات، لم أستطع إضافة دقيقة واحدة عليها، فأمضيت ما تبقى من ساعات الليل مع رواية «الغريب» لألبير كامو، الّتي أقرؤها للمرّة السادسة. كم جميلة هي هذه الرواية. كل مرّة أقرؤها أشعر وكأنها المرّة الأولى؛ لا أمل منها أبداً. تأثّرت بها في كتابة روايتي الأولى، ولكن من يُقدّر؟! لكم تمنيت لو أن ناقدًا بارعًا قرأ روايتي بتمعن، ثم استخرج أوجه الشبه بينها، وبين رواية «الغريب»، ولكن هيهات ـ حلم بعيد المنال! النقّاد، الّذين على الأغلب استأجرهم تركي، لا يعرفون سوى «صائد الساحرات... مزيج بين ستيفن كينج، وأمبرتو إكو»... «أجاثا كريستي بُعثت من جديد، ولكن على هيئة رجل!»... «رواية ساحرة، هي الّتي اصطادتنا!»... جمل فضفاضة لا معنى لها، تخلو من أي عمق، لرواية لا يوجد فيها أي عمق؛ هذا الذي حصلت عليه من هؤلاء النقاد! كم يا ترى دفع لهم تركي، حتى يكتبوا هذا الهراء؟!

***



جاء الصباح، وأشرقت الشمس لتأذن بيوم جديد حافل بلقاءات صحفيّة، وندوات جامعية، كلّها تتمحور حول روايتي الحاصلة على الجائزة الكبرى. يجب عليّ أن أتظاهر بأنني فخور بهذا الإنجاز الرائع! لا أدري كيف سوف أتحمل... كان الله في عوني!!

– «كيف أتتك فكرة الرواية؟ وهل فعلاً كما يشاع أنك قمت بمخالطة أحد سحرة المغرب الكبار؟»

بماذا بالله أجيب على سؤال كهذا صادر من هذه الإعلامية، والأديبة المرموقة الّتي تحاورني؟!

– «فكرة الرواية كانت تشغلني منذ زمن بعيد؛ منذ أن تعرض أحد أصدقائي للسحر، وقمت بإجراء بحث مطول أخذني شرقا إلى جزيرة جاوا في إندونيسيا، ثم غربا إلى ساحة الفناء بمرّاكش، حتّى تمكّنت من مساعدته، عبر اكتشاف الطريقة الّتي أجري له السحر بها، والشخص الذي أجراها؛ كانت طليقته الّتي أرادت الانتقام منه. المسكين كان متزوجًا من ساحرة دون أن يدري».

– «إذًا هل نستطيع القول بأنّك أنت بالفعل صائد الساحرات؟»

أضحك متظاهرًا بالتواضع، والخجل...

جزء من العلامة التجارية الّتي أرادها تركي، واشترطها عليّ قبل تنفيذ المشروع، أن أصبح أنا صائد الساحرات، لكي أوحي



للقارئ أن الرواية هي من غياهب الواقع المثير الّذي أعيشه بشكل يومي! أرادني أن أصبح تجسيدا حيّا للبطل، حتى يزيد من إقبال القرّاء على الرواية.

- «لا تعليق». أجيبها بعد تردّد مصطنع، مؤكّدًا الإجابة بلعنم على سؤالها الغبي!

- «بصراحة، هل قمت بوضع سحر في الرواية لكي تحظى بكل هذا الاهتمام من قبل القرّاء، والنقّاد، ولكي تحصل على الجائزة الكبرى؟»

مرّة أخرى أصطنع ضحكة، ولكن هذه المرّة تتّسم بالغموض، ثم أجيبها:

- «إنّ في البيان لسحرا، كما يقال».

تبتسم الإعلامية الشهيرة لهذه الإجابة الّتي لعلّها اعتبرتها ذكية، قبل أن تضيف سؤالا آخر:

- «ماذا عن جديدك؟ هل سيكون حول مغامرة سحرية جديدة؟»

أعوذ بالله! سوف أعتزل الكتابة لو طلب منّي تركي أن أكتب رواية جديدة حول السحر، وهذه الخزعبلات!!

- «لا أحب أن أتحدث عن عمل لم يكتمل بعد، ولكنني أعدكم بأنّه سوف يفاجئكم».



مللت من هذه اللقاءات، ومن هذه الأسئلة المكرّرة التي أجيب عليها.. ماذا دها الناس؟! كيف يتقبلون الخديعة بهذه السهولة؟! لماذا يصدقون كل ما أقوله من هراء واضح، دون أدنى شك، وكأنّهم يصرّون على أن يُخدعوا؟! لقد أخبرني تركي منذ البداية، وقد صدق: «العرب هم أكثر شعب على وجه هذه الأرض تقبّلا للخداع، وهذا الذي سوف يجعل الرواية تنجح بشكل غير مسبوق».

غدا سوف ألتقيه على الغداء؛ ومن يدري، لعلّه يقترح عليّ فكرة رواية جديدة، بل خدعة جديدة، نغزو بها مكتبات العالم العربي، كما فعلنا مع «صائد الساحرات» ، مستغلّين الأسطورة الّتي حكناها سويًا، ونسجنا خيوطها على غفلة من الناس... لكم أتمنى أن أخرج نفسي من هذا الوحل الأدبي الّذي وجدتني فيه، ولكنني لا أستطيع. بتّ أسيرًا لشباك النجاح، وما غدت قادرًا على الإفلات.



ذهبت إلى مطعم لصرت بالجميرة في الموعد المتفق عليه، وكما هي العادة، لم يصل تركي بعد. يبدو أن التأخر عنده قد أصبح عادة لا يمكن التخلي عنها تماشيا مع التقاليد العربية العريقة في عدم احترام المواعيدا لكنّ العجيب في الأمر أني لم أنتظر طويلاً هذه المرّة، بل فقط عشر دقائق... يبدو وكأن الموضوع الذي يودّ التحدث فيه معي، في غاية الأهمّية. هذا تفسيري الوحيد لعدم تأخره نصف ساعة، أو أكثر!

- «من السهل جدًا الوصول إلى النجاح، ولكن التحدي الحقيقي يكمن في المحافظة عليه، وتنميته. أنت الآن قد أصبحت علامةً تجارية رابحة، ولكن هذا لا يكفي. حتّى العلامات التجارية لها مدّة زمنيّة محدّدة، ثمّ سرعان ما يذهب بريقها. لذلك يجب أن نطمح إلى ما هو أعظم... أن تصبح أسطورة حيّة!»

- «أسطورة مرّة واحدة؟!»

حقًا ما عدت أفهم كيف يفكر تركي... غيره سوف يكتفي بما حققناه من نجاح لا يحلم بتحقيق عُشره معظم كُتّاب، ودور نشر العالم العربي، ولكن الحال دائمًا مختلف مع هذا الرجل.

- «وأنت لست بأقل منها يا صديقي! نعم، أسطورة مرّة واحدة، ولم لا؟! ألم أعدك بأن تصبح أهمّ روائي في العالم العربي، وقد حصل؟ والآن، أعدك بأن تصبح أهمّ روائي في العالم بأسره! نحن لسنا إلا في بداية المشوار أيها الروائي الفذ، والسماء هي حدودنا! ولكن أريدك أن تستمع إليّ جيدًا، فما سوف أعرضه عليك هي مسألة غير تقليدية، وقد لا تروق لك في البداية، ولكن صدّقني إن فكرت فيها جيدًا، وأحسنت استغلالها، فسوف تنقلك وتنقلني معك إلى آفاق ما كنّا نحلم بها».
- «أثرت فضولي يا تركي.. ما هو ذلك الأمر الخطير؟»
- «قبل كل شيء، ما سوف أقوله لك الآن، هو أمر في غاية السرّية، ولا يجب أن تردّده لأي أحد مهما كان».
- «شغلتني يا رجل! هات ما لديك وخلّصني!»
- «عدني أولاً بأن الأمر سيبقى بيننا، ولن تردّد لأي أحد ما سوف أقوله لك».
- «أعدك يا سيدي.. هيّا، هات ما عندك!»
- «هل سمعت بالشيخ إبراهيم العاصم؟»
- «الاسم لا يبدو غريبًا.. ولكنني لا أتذكر أين سمعته من قبل».
- «هو رجل الأعمال المعروف. ألم تسمع مثلاً بمشروع عمائر الصفا عندكم في جدة؟»



- «آه.. نعم، نعم، تذكرت الآن. عمائر الصفا، في أبحر الجنوبية. أقل شقة هناك بمليوني ريال! مشروع سكني خيري جميل!»

- «دعك من التهكم. هو في نهاية المطاف رجل أعمال ناجح، ومع ذلك لديه مؤسسة خيرية معروفة لإعانة الأسر الفقيرة».

- «وكأنني سمعت بأن مشروعه ذاك في أبحر متعثر بعض الشيء، بسبب خمول سوق العقار».

- «كلها شائعات، لا تصدقها. لقد باع تسعين في المائة من المشروع، مع أنّه لم يكتمل بعد».

- «وكيف عرفت هذه المعلومة؟»

- «عرفتها منه. هو صديق قديم، وقد كنت في زيارته منذ يومين في الرياض، وطلب مني أمرًا يخصك أنت».

أظنني بدأت أفهم غرض تركي... لا أستبعد أبدًا أن يكون قد أقنع صديقه رجل الأعمال هذا بتمويل تحويل رواية «صائد الساحرات» إلى مسلسل رمضاني ضخم!

- «هو يعرفني إذًا؟»

- «بالطبع يعرفك، وهو من أشد المعجبين بك، وبروايتك! ويحسب أنك أنت بطل الرواية، وأنك بالفعل صائد للساحرات!»



- «لست مستغربًا؛ فلن يكون أول شخص أصادفه غير قادر على التفرقة بين الحقيقة والخيال. مع الأسف القرّاء في عالمنا العربي لديهم هذه المشكلة العويصة؛ فهم دائما ما يخلطون بين شخص البطل، وكاتب العمل».

- «وهل هذا شيء سيئ؟»

نبرة تركي في تساؤله الأخير، بدت لي مريبة بعض الشيء. كأنه يحوم حول مسألة ما، يتردّد في طرحها. بدأت أشكّ في أنّ الأمر لا يتعلق بإنتاج مسلسل رمضاني..

- «تركي، ما الذي يريده منّي بالضبط إبراهيم العاصم؟»

- «بكل صراحة، هو بحاجة ماسّة إلى مساعدتك».

- «مساعدتي أنا؟ في ماذا؟ هل يرغب في كتابة رواية؟!»

ضحكة يطلقها تركي الزايدي، أفهم منها أن الأمر لا يتعلق أبدا بكتابة رواية؛ ثم سرعان ما تختفي أثر هذه الضحكة منْ على وجهه، لتستبدل بنظرات جادة، مصاحبة لنبرة صوت منخفضة... حريصا على ألاّ يسمعه أحد، قال تركي:

- «الشيخ إبراهيم يعاني من مأزق كبير جدًا! ونعم، هو بحاجة ماسّة إلى مساعدتك، أو بالأحرى، إلى مساعدة صائد الساحرات».

- «مساعدة صائد الساحرات؟! تركي ماذا دهاك؟! لا يوجد

صائد للساحرات! هذه مجرد شخصية خيالية ابتدعناها أنا وأنت، أم أنك نسيت؟»

- «أعلم ذلك جيدًا، ولكنّه، كما شرحت لك من قبل، مقتنع بأنّك بطل الرواية، ويريدك أن تساعده».

- «أساعده في ماذا؟»

- «في فكّ أثر السحر الّذي أصابه، ومعرفة شخص الساحر، أو الساحرة!»



مرّات كثيرة ينتابني شعور بأنّ الناس من حولي قد جُنّوا، وأنّني العاقل الوحيد فيهم! المشكلة تكمن في أنّني لو لم أسايرهم، لأصبحتُ الشاذ من بينهم؛ فإما أن أصبح مجنونًا مثلهم، أو منبوذًا لا مكان له وسط مجموعة من المجانين الذين يحسبون أنفسهم عقلاء! أي جنون هذا أن أتقمص شخصيّة بطل رواية كتبتها، من أجل إرضاء معتقد قارئ ما، وإن كان من أهمّ قرّائي، وأكثرهم ثراء؟! كلّما اعتقدت أنّ هذه الرواية الملعونة قد سلبتني الكثير، اكتشفت أن هناك ما هو أكثر لكي تسلبه منّي!! كأنّها تريد أن تمسحني من الوجود حتّى لا يبقى لي أي أثر سواها في وجدان الناس!

الشيخ إبراهيم العاصم، رجل الأعمال الكبير، وصاحب النفوذ الواسع، بدأ يعاني في السنة الأخيرة من أعراض عجيبة تتمثل في هم، وقلق دائمين، مع فقدان شهيته للطعام، وأرق مستديم يجعله لا ينام سوى سويعات قليلة في اليوم؛ كما أنه لم يعد قادرًا على إتيان زوجته الحبيبة، منذ أن بدأت معه كل تلك المشاكل.

- «لعلّه مصاب بالسرطان، أو أي شيء من هذا القبيل». كانْ

استنتاجي المباشر لما سمعته من تركي عن حالة صديقه الثري.

- «وهل تحسب أنّ رجلاً مثله في سبيل صحّته لن يذهب إلى أفضل الأطباء في داخل المملكة وخارجها؟ لا توجد فحوصات إلا وقد أجراها، وجميعها كانت سليمة تماماً؛ بل جميع الأطباء أخبروه بأنّ جسده أشبه بجسد شاب في الثلاثين. الحق يقال: الشيخ تركي معروف عنه اعتناؤه الشديد بصحته ولياقته البدنية، وكل صباح يمارس رياضة الجري في حديقة قصره لمدّة ساعة على الأقل، هذا إلى جانب التنس، والسباحة. الرجل بالرغم من كونه تجاوز الستين، إلا أنه بالفعل يبدو أصغر من سنه بكثير، ولا يعاني من أي مرض مزمن، ولذلك كان التغير، الذي طرأ عليه فجأة، غير مفهوم».

- «لكن يا تركي هذا لا يعني أنّه مسحور! لعلّ مشكلته نفسية، وليست عضوية... مشاكل في العمل، خاصة أن الأوضاع الاقتصادية هذه الأيام ليست بالسهلة... أو ربما يخشى المساءلة القانونية حول قضايا فساد ما».

- «الأمر لا علاقة له بكل هذا الذي ذكرته. فالشيخ إبراهيم مشهور بنزاهته، ولا توجد عليه أية قضايا، كما أن شركاته مستقرة، وليس هناك مشاكل في العمل بخلاف المعتاد



الذي يطرأ كل فترة وأخرى، كما هو الحال دائمًا مع عالم المال، والأعمال».

- «إذًا هي مشكلة نفسية. لا يوجد تفسير آخر».

- «مشكلة نفسية تظهر فجأة هكذا، ودون سبب؟! لا، بل يوجد تفسير آخر، وقد توصل إليه بعد قراءة روايتك».

- «يا تركي! أرجوك دعك من هذا الهراء...».

حاولت أن أذكّر تركي بأن كل الذي جاء في تلك الرواية المزعومة ليست إلا خرافات، قمت بتلفيقها من وحي خيالي، زيادة على المحاور الّتي أعطاني إياها، بعد قراءة كتب الدجل التي جلبها إليّ هو؛ ولكنه لم يعطني أدنى فرصة، وباشر بمقاطعتي على الفور، وكأنّ هوس السحر قد أصابه هو الآخر! صلعنا الكذبة سويًا، وبات يصدقها!!

- «اسمعني أنت إلى الآخر، ثم احكم بنفسك... أنا مثلك لم أصدق في بادئ الأمر، حتّى سمعت منه ما سوف أقصه عليك الآن، ولكن رجاء كما طلبت منك في أول الحديث: لا يخرج ما سوف تسمعه منّي الآن عن دائرة هذه الطاولة، لشدّة حساسية الموقف، وخطورته... الشيخ إبراهيم قارئ نهم، وقد اعتاد كل عام على قراءة جميع الروايات الّتي تصل إلى القائمة القصيرة لجائزة الرواية العربية، وكم كانت دهشته عندما لاحظ تشابهًا كبيرًا بين الأعراض الّتي

أصابته، والظروف المحيطة بها، وتلك الّتي أصابت إحدى شخصيات الرواية، ممّا جعله يشكّ بأنّه ربما يكون هو الآخر مسحورًا! والأدهى من ذلك، أنّه أخذ يبحث في مقتنياته الشخصيّة عن رابط السحر، كما ورد في الرواية. بحث عنها في كل مكان: في الوسادة، وتحت السرير، وفي ملابسه، وفي حقائبه، وتحت مقاعد السيارات الّتي يستخدمها، ولكنّه لم يجد شيئًا».

- «ألم أخبرك بأنها مجرد تخاريف، لا مكان لها من الإعراب! لا يوجد سحر يا تركي، ولن يجد صديقك، رجل الأعمال هذا، أي رابط له في أي مكان يبحث عنه!»

- «ثم تذكر ما جاء في نهاية الرواية، عندما وجد البطل علامة الرابط التي من خلالها استطاع التوصل إلى الرابط نفسه، وكما ذكرت في الرواية: الرابط السحري يصعب إخفاؤه لأنّه يحتل حيّزًا من المكان، وإن صغر، بعكس العلامة الّتي يمكن رسمها في أي مكان مخفي قريبًا من شخص المسحور».

- «يا أخي كل هذا مجرد تأليف من وحي خيالي، وأنت تتحدث عنه، وكأنّه حقيقة من حقائق الكون الّتي لا تقبل النقاش!»

حاولت أن أبين لتركي حماقة ما يقصّه عليّ.. أن أعيده إلى رشده، وصوابه، حتّى لا ينجرف مع هوس صديقه، رجل الأعمال



المخبول، ولكن لا حياة لمن تنادي. ظلّ تركي مستمرًا في سرد الأحداث، وكأنني لم أقل شيئًا...

- «وكما جاء في الرواية، العلامة يجب أن تكون في أقرب نقطة من شخص المسحور حتّى تكون همزة وصل فعّالة مع رابط السحر؛ فبحث الشيخ إبراهيم في حجرة مكتبته الخاصة بالقصر حيث يقضي جلّ وقته، وكم كانت دهشته عندما وجدها! نعم لقد وجد علامة الرابط السحري، وكما وصفتها أنت بدقّة شديدة أيها الروائي المبدع: نجمة خماسية تتوسط دائرة على شكل ثعبان يبتلع ذيله، وداخل الدائرة، بين أضلع النجمة، توجد الحروف الغريبة ذاتها!»

- «ماذا؟»

لقد فاجأني تركي بهذا الخبر... حقًا لم أتوقعه، ولكن حتما هناك تفسير منطقي، أجهدت عقلي لكي أهتدي إليه في هذه اللحظة، لكي أرد به على ما سمعت...

- «ربما... ربما تكون مجرد دعابة من شخص قرأ روايتي».

- «يا رجل! أية دعابة هذه الّتي تأتي على هذا الشكل؟! لقد تم رسم علامة الرابط في أحد أدراج المنضدة الأثرية الفاخرة الّتي اشتراها من مزاد أقيم في باريس! الذي قام بهذا العمل شخص يدرك جيدًا ماذا يفعل، متعمدًا إخفاء العلامة، ولولا روايتك لما توصل إليها الشيخ إبراهيم؛ ولهذا

طلب منّي أن أحضرك إلى قصره، مهما كان الثمن، لكي تساعده في أزمته الكبيرة هذه!»

- «يا تركي.. ما شأني أنا بمثل هذه الأمور.. كل ما فعلته أنّي كتبت رواية سخيفة بإيعاز منك، ولكنني في واقع الأمر لا أفقه شيئًا في السحر، ودروبه!»

- «يا صديقي لا تبخس حقك، ودعك من كل هذا التواضع. من الواضح أنّ البحث الّذي قمت به من أجل كتابة الرواية، قد جعلك خبيرًا، أو على الأقل، مُطّلعًا في شؤون السحر، ودروب أفعال السحرة؛ والعلامة التي وجدها الشيخ إبراهيم هي أكبر دليل على ذلك. هي مطابقة تمامًا لتلك الّتي رُسمت على وجه الغلاف، بناء على وصفك أنت في الرواية... خذ، وانظر بنفسك».

ودون أن يمهلني فرصة للردّ عليه، ناولني تركي هاتفه الجوّال، وفيه صورة للعلامة الّتي وجدها إبراهيم العاصم..

في بادئ الأمر ظهرت لي وكأنها نسخة طبق الأصل عن تلك التي خرّفتها في الرواية.. النجمة الخماسية ذاتها، والثعبان الذي يبتلع ذيله ذاته... في كتب السحر التي قرأتها لا توجد علامة على هذا النحو تحديدًا. هناك نجمة خماسية داخل دائرة مفرغة، هناك علامة الثعبان الذي يبتلع ذيله على شكل دائرة، ولكن الجمع بينهما على هذا النحو، مع وجود الأحرف العبرية بين أضلاع

النجمة، لتشكل كلمة «أبراكدابرا» هي مسألة حتمًا من تخريفي أنا! ولكن عندما دقّقت أكثر في الصورة، وجدت أمرًا غريبًا... أمرًا أثار فضولي... أنا لست خبيرًا باللّغة العبرية، ولكنّي بحثت حولها، أثناء تحضيري للرواية، لارتباط اللّغة العبرية بكثير من كتب السحر القديمة، ولرغبتي في أن أضيف شيئًا من المصداقية لتلك الرواية البائسة! ظننت أن وضع أحرف عبرية في العلامة قد يضيف شيئًا من الغموض، فاستخدمت كلمة «أبراكدابرا» الشهيرة على سبيل الدعابة! ولكن هذه الأحرف، الّتي أراها في الصورة، شبيهة بتلك الّتي وضعتها في الرواية، ولكنّها ليست هي... حتمًا ليست هي ذاتها.

– «تركي هل لديك صورة أوضح للعلامة؟»

ما إن خرج السؤال من فمي، حتّى أدركت أنني قد وقعت في فخ الفضول الذي نصبه لي داهية الناشرين، تركي الزايدي!

– «لا، هذا كل ما لدي... الصورة هذه تبدو لي واضحة جدًا. ألا تبدو لك أنت كذلك؟»

– «الأحرف... كأنها مختلفة...».

– «عن أية أحرف تتحدث؟ تقصد الطلاسم؟»

– «هي ليست طلاسم، بل أحرف عبرية...».

أجبته أثناء إخراج هاتفي الجوال، لكي أبحث فيه عن صورة

لغلاف الرواية من على الشبكة العنكبوتية التي أصبحت خيوطها تحيط بكل شيء على وجه الأرض، بما فيه «صائد الساحرات»!

– «هو كما توقعت...».

قارنت بين الصورتين، وبالفعل وجدتهما غير متطابقتين، وإن كان الشبه كبيرًا جدًا.

– «عمّ تتحدث؟»

– «الأحرف الموجودة في العلامة الّتي وجدها صديقك ليست هي الّتي في الرواية، وهي ليست أحرفًا عبرية حتى».

– «وهل تعني لك هذه الأحرف أي شيء؟»

– «لست متأكدًا...».

– «أرأيت يا صديقي... الأمر فيه لغز كبير، وبغض النظر إن كان سحرًا بالفعل، أو مجرد دعابة سخيفة، فهو يشكل فرصة رائعة لا يجب علينا تفويتها... تخيّل الدعاية الّتي سوف تحصل عليها فور كشفك للمؤامرة السحرية الّتي يتعرض لها الشيخ إبراهيم! سوف تتحول يا صديقي إلى أسطورة حيّة! وستكون هذه المغامرة الرهيبة مادة خصبة للرواية القادمة، الّتي أضمن لك من الآن أنّ نجاحها سوف يفوق نجاح صائد الساحرات بكثير!»

لم أتمكن من مجادلة تركي. لقد غلبني بحماسه المفرط،

فرفعت له الراية البيضاء كما فعلت من قبل... هذا الوغد يعلم جيدًا كيف يصل إلى هدفه. يجيد اللعب على أوتار الشخص الذي أمامه، وقد لعب بمهارة على أوتار شغفي بالمزيد من التألق والنجاح! نعم، لقد سرت على درب لا أستطيع العدول عن السير فيه الآن.. النجاح أسكرني، فبتُّ مدمنًا عليه؛ وكأي مدمن غارق في بئر إدمانه، أصبحت كلّما تجرعت من كأس النجاح، اشتقت إلى المزيد منه.



استُقبلت في مطار جدة استقبال النجوم.. حفاوة لم أعهدها من قبل، ولم أتخيلها قط! لا أدري إن كان تواجد كل هذه الأعداد من الناس هو من ترتيب تركي، أم أنهم بالفعل قرّائي الذين أتوا صادقين من أجل الاحتفاء بفوز ابن بلدتهم، وكاتبهم المفضّل، بأرقى جائزة أدبية في العالم العربي؟ سبحان الله، من كان ليتخيَّل كل هذا؟! روائي عربي يُعامل معاملة النجوم! وإن كنت أتمنى لو أن هذه الحفاوة الكبيرة كانت من أجل رواية كتبتها تستحق..أحمد الله أنني قابلت تركي، وقبلت مشروع رواية «صائد الساحرات» بعد وفاة أبي، وليس في أثناء حياته؛ كان حتمًا أمله سيخيّب في ابنه الوحيد إن شهد ما آل إليه مشروعي الأدبي الّذي طالما كان أكثر المؤمنين به، منذ أن كتبت أول قصة قصيرة، وأنا في المرحلة الابتدائية... تلك القصة الّتي ظلّ محتفظًا بها، بين كتبه، حتى وفاته...عندما فزت لاحقًا، وأنا في المرحلة الثانوية، بجائزة القصة القصيرة الّتي نظّمتها جريدة عكاظ، وصلت فرحته إلى قمتها، فأهداني أثمن كتاب كان يحتفظ به: رواية «الغريب» لكاتبه المفضّل، ألبير كامو؛ تلك النسخة الّتي اشتراها عندما كان في مثل عمري آن ذاك، واحتفظ بها إلى أن أهداني إيّاها...

– «في يوم ما سوف تصبح أهم أديب في العالم العربي، وسوف تكون ثاني عربي يحصل على جائزة نوبل للآداب من بعد نجيب محفوظ!»



كم كان متفائلاً بي أبي، وكم أشعر بأنّني خنت ذكراه بالدرب الذي سلكته من بعد وفاته. عزائي الوحيد أنّه مات قبل أن يشهد انحدار ابنه الوحيد إلى مثل هذا القاع الأدبي البائس...

***

يومين سوف أقضيهما في جدة من أجل ترتيب أموري قبل أن أذهب إلى الرياض، في استضافة إبراهيم العاصم لكي أكتشف سرّ ذلك السحر المزعوم! طائرة خاصة ستنتظرني في مطار الملك عبد العزيز الدولي، لكي تأخذني إلى عاصمة البلاد، الّتي لم أذهب إليها سوى مرّة واحدة في حياتي، منذ عدّة سنوات. الشيخ إبراهيم، كما يناديه تركي، جهّز لي فيلا من فلل قصره لكي أبيت فيها دون أن يزعجني أحد. كل شيء تم ترتيبه فور ما أبديت موافقتي على العرض. لا أحد غيري، وتركي يعلم أي شيء عن أمر تلك العلامة الّتي وجدها إبراهيم العاصم في قصره، وبالتالي سبب مجيئي المزعوم هو رغبته في استضافة كاتبه المفضّل من أجل الاحتفاء به بمناسبة فوزه بجائزة الرواية العربية. لا أدري إن كانت هذه الحجّة سوف تنطلي على باقي سكان القصر، ولكنّني أحسبها أهون بكثير من سبب قدومي الحقيقي: من أجل تحري أمر تلك العلامة، والتوصل من خلالها إلى رابط السحر من أجل إبطال مفعوله، وشخص الساحر (أو الساحرة) الّذي قام بصناعة ذلك الرابط!! مغامرة عجيبة، من أجل رواية أخرى جديدة حول عالم السحر، والسحرة... أعانني الله!!



الطائرة فاخرة جدًا، تعكس ثراء صاحبها، إبراهيم العاصم! المسكين يبدو وكأنه في غاية اليأس حتى يُسخِّر هذا القصر الطائر لي، لكي يضمن مجيئي إلى الرياض في أقرب وقت، بعد أن اتّفق مع تركي على أن يستضيفني في قصره لمدّة أسبوع، تحت حجة الاحتفال بفوزي بجائزة الرواية، في حين أن الغرض الحقيقي الذي لا يعرفه أحد، هو محاولة كشف هويّة الساحر الّذي يريد به شرًا، وفك أثر سحره! لا أعلم كيف سأفعل كل هذا؟!... حتمًا سوف ينكشف أمري! ولكن تركي على ثقة بأنني سوف أجد حلاً إبداعيًا يليق بي كروائي «عظيم» على حد وصفه. لدي أسبوع لكي أخرجَ بشيء يساعد صاحب القصر على تجاوز أزمته؛ لعلّي خلاله أجد له طبيبًا نفسيًا جيّدا يقنعه بأن مشكلته لا علاقة لها بالسحر، وإن كان تركي يفضّل أن أدعي أن السحر قامت به خادمته الإندونيسية..

- «الكلّ يعلم بأن إندونيسية هي بلاد السحر. لن يشكّك الشيخ إبراهيم في نتيجة كهذه».

- «تريدني أن أتّهم إنسانة بريئة بالسحر، وما قد ينتج عنه من قطع رأسها؟! هل جننت يا تركي؟!»

– «يا سيدي، ومن قال لك إن الأمر سوف يصل إلى هذا الحد؟ الشيخ إبراهيم رجل طيِّب القلب. في الغالب سوف يسامحها، ويكتفي بتسفيرها إلى بلدها، بعد أن يحمد ربه بأن سخَّرك إليه من أجل إنقاذه من شراك السحر الّذي وقع فيه».

– «لن أفعل! لن أتهم أبدا إنسانًا بريئًا! هل فهمت؟!»

– «حسنًا، إذًا أمامك أسبوع من أجل الإتيان بحل إبداعي يرضي الشيخ إبراهيم؛ وأنا واثق بأنّك لن تَغلب في إيجاد هذا الحل أيها الروائي العظيم».

أسبوع واحد...

نعم، في هذه الفترة الوجيزة يجب أن أجد شيئًا أفسّر به سرّ تواجد تلك العلامة السخيفة المأخوذة من روايتي، والّتي وجدها إبراهيم العاصم في مكتبته الخاصّة. أنا واثق أنّ الأمر لا يتعدى كونه مزحة سخيفة قام بها أحد المقيمين في القصر. لعلّ ذلك الشخص أراد استغلال الحالة النفسية الّتي يعاني منها إبراهيم العاصم، فأراد إيهامه بأنّها ناتجة عن رابط سحري صُنع له. دعابة متخلّفة مستغِلّة لروايتي السخيفة، ولكنّها تجاوزت حدّها... لا أدري... ولكنني لا أرى تفسيرًا آخر منطقيًا - سحر! لا أعلم كيف يمكن لإنسان متعلم في القرن الحادي والعشرين أن يؤمن بوجود السحر في هذا الزمان؟! لقد ولّى زمن السحر، وراح إلى غير رجعة...

***



– مذّك إشي ثاني قبل أن نهبط؟»

لعلّ السحر الوحيد الذي قد أومن به في هذا العالم هو سحر الفاتنات لألباب الرجال، خاصة عندما تكون مضيفة طيران لبنانية! اسمها ميرنا، وقد أحسن اختيارها من فعل. مع الأسف ليس لدي وقت لكي أتعرف عليها عن قرب، فأنا بحاجة لكي أفكر في حل إبداعي، على حد قول تركي، لمعضلة إبراهيم العاصم، وتلك العلامة المشؤومة الّتي وجدها!

لعلّي لو كنت قد قرأت روايات أجاثا كريستي، أو قصص آرثر كونان دويل عن شخصية شرلوك هولمز، لعرفت كيف يمكن أن أحقق في هذه المسألة! كان الأجدى بتركي أن يستعين بكاتب روايات بوليسية.. أذكر أنني شاهدت فيلمًا بوليسيًا منذ سنوات عدّة، نسيت اسمه الآن؛ أظنّ أن البطل فيه بدأ بوضع قائمة للمشتبه بهم... في هذه الحالة الأمر حتمًا لن يخرج عن دائرة المقرّبين من إبراهيم العاصم، المقيمين معه في القصر، الّذين أخبرني عنهم تركي في دبي:

ناهد.. زوجة إبراهيم العاصم منذ عشرين عامًا، مصرية الأصل، كانت متزوجة من رجل قبل زوجها الحالي، أنجبت منه طفلين، ولد، وبنت يعيشان معها، بعد أن تكفّل بهما إبراهيم العاصم، الّذي لم ينجب قط، لا منها، ولا من زوجته الأولى الّتي لم تعد على ذمّته. هي ربّة منزل، فمثلها ليس بحاجة للعمل،



ومع ذلك هي كثيرة الانشغال ما بين الجمعيّات الخيرية الّتي تواظب على حضور معظم فعاليّاتها، والدعوات الشخصية لحفلات، وأفراح عليَة القوم، تخرّجت من الجامعة الأمريكية في القاهرة، تخصص إدارة أعمال، وعملت بشركة مقاولات معروفة هناك، قبل أن يتعرف عليها إبراهيم العاصم في زيارة عمل له إلى مصر، حيث أعجب بكفاءتها الكبيرة، فعرض عليها العمل في شركته في الرياض. ترذدت كثيرا، قبل أن توافق على الراتب المغري الذي عرضه عليها رجل الأعمال، الملياردير، السعودي، وزوج المستقبل... (تركي لم يكن على يقين إن كانت على ذمّة زوجها الأول عندما وافقت على الانتقال إلى السعودية من أجل العمل، أم أن الطلاق كان قد وقع بينهما من قبل. كما لم يكن يعلم الفترة الزمنية الّتي أمضتها السيدة ناهد في عملها الجديد، قبل أن تتزوج من صاحب الشركة.)

هذه كل المعلومات الّتي استطعت الحصول عليها... هي ليست بالكثيرة، ولكنّها بداية لا بأس بها، وإن كنت أستبعد أن تكون هي من وراء السحر المزعوم الّذي تم استدعائي من أجله.

هند... أخت إبراهيم العاصم الصغرى، ولكنها من أم أخرى كانت الزوجة الثانية لأبيهما الّذي توفي منذ عقد. تعيش مع أخيها في القصر الكبير، ولكن في فيلّتها الخاصة، المنفصلة عن فيلا صاحب القصر (قصر إبراهيم العاصم)، كما علمت من

تركي، مكون من ثلاث فلل مطلّة على بحيرة اصطناعية كبيرة، ومجموعة من البيوت الصغيرة عند المدخل، مخصّصة للعاملين في القصر. كما يوجد فيه مسجده الخاص الذي تقام فيه الصلوات الخمس، وكذلك صلاة الجمعة؛ بجانب منطقة رياضية، هي أشبه «بالسبا» ، وحديقة حيوانات خاصة، ومزرعة عضوية صغيرة، تمد القصر باحتياجاته من الخضراوات الأساسية، وبعض الفواكه، واللحوم الطازجة؛ كلّها مطابقة لمعايير صحيّة تشرف عليها هند بنفسها.) تخرّجت أخت إبراهيم العاصم من جامعة السوربون بباريس في الثمانينات، قسم الدراسات الشرقية، ثم حصلت على الماجستير، والدكتوراه من جامعة أوكسفورد، وبعدها التحقت بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، حيث تترأس حاليًا قسم الأدب العربي. لسبب مجهول، هي لم تتزوج قط، ولا يبدو أنها سوف تتزوج قريبًا، خاصة وأنها قد تجاوزت الخمسين من عمرها، على حد زعم تركي. (يبدو لي أنها من تلك النساء اللواتي كرّسن أنفسهن من أجل حياتهن العملية، خاصة وأنها تخرّجت من أرقى جامعات العالم؛ في غالب الظن هي لا ترغب في الارتباط بزوج يلهيها عن حياتها المهنية، وما قد ينتج عنه من إنجاب أطفال، فتنشغل بهم جميعًا عن مستقبلها الأكاديمي، وما يتطلّبه من أبحاث، ودراسات، وشغل دؤوب.) لا أظن أن مثلها،

سوف يتورط في شيء تافه يتعلق بالسحر، والدجل، حتّى وإن كان على سبيل الدعابة السخيفة.

لدى.. ابنة ناهد الكبرى من زوجها الأول. تربّت في كنف زوج أمها، إبراهيم العاصم، منذ أن كانت في الخامسة من عمرها، فكان بمثابة أبيها، وهو بحسب تركي، أهم رجل في حياتها، ولا تناديه إلا «بابا إبراهيم». تخرّجت لدى من جامعة الأمير سلطان، قسم الإدارة الماليّة، وتعمل في شركة «بابا» إبراهيم العاصم. غير متزوجة، وغير مخطوبة.... هي الأخرى لا تبدو لي وراء علامة رابط السحر الّذي وجده زوج أمها مرسوما في مكتبته... مع الأسف هذا كلّ ما حصلت عليه من تركي عنها؛ فهو لا يعرفها جيّدا، ولم يلتقِ بها إلا مرّة، أو مرّتين في حياته.

أيمن... الابن الأصغر لناهد من زوجها الأول. هو أصغر من أخته بعام، وكحالها لا يعرف لنفسه أبا غير إبراهيم العاصم. تخرّج من كلّية الصيدلة، ويعمل مديرًا تنفيذيًا لصيدليات العاصم، التابعة لزوج أمّه... غير متزوج، ولا خاطب، ولكن بحسب تركي هو متعدّد العلاقات، وبخلاف أخته، يعشق اللّهو، ولا يأخذ الحياة بجدّية، ولعلّ هذا ما يسبّب، بين الحين والأخرى، بعض الاحتكاك مع أمّه الصارمة، بخلاف زوجها الّذي أفرط في تدليله. (يبدو لي أن فقدان إبراهيم العاصم لأبناء من صلبه، بسبب عدم قدرته على الإنجاب،



هو ما يجعله يغدق على ابني زوجته، ويفرط في تدليلهما، حتّى بات يعاملهما، وكأنّهما من صلبه.)

لا أحد من عائلة إبراهيم العاصم، المقيمين معه في القصر، تحوم حوله الشبهات. جميعهم، كما يبدو لي، على علاقة جيّدة معه، ومن المستبعد أن يكون أحد منهم هو من قام برسم العلامة، لأي سبب كان.. هذا يعني أن الاحتمال الأقرب أن يكون أحد العاملين في القصر هو من فعلها، ومع الأسف تركي ليس على دراية بهم، مما يعني أنني بحاجة إلى أخذ المعلومات عنهم من صاحب القصر ذاته، عندما أقابله في الرياض.. يا إلهي، ما شأني أنا وهذا الأمر السخيف؟! أنا روائي جاد، ومحترم، ولست محققًا خاصًا مثل شرلوك هولمز! كان حريًا بإبراهيم العاصم أن يستعين بكاتب روايات بوليسيّة، وليس بأديب جاد مثلي عاش طوال حياته على قراءة تولستوي، وديكنز، وألبير كامو! لكن ماذا عساي أن أقول سوى أن هذا هو الثمن الّذي أدفعه مقابل موافقتي على كتابة «صائد الساحرات»!!



لو كنت ممن يتطيّرون، لقلت إن استقبال مدينة الرياض لي ينذر بالشؤم. لا أدري كيف استطاع قبطان الطائرة الهبوط وسط هذه الأجواء المغبرة، ولكنّه فعل! سماء يكسوها الصفار، وكأنّها دُهنت بهذا اللون القاتم، فلا يكاد يظهر فيها قرص الشمس، بعد أن توارى من أثر طبقات التراب. لعلّ الشيء الوحيد الّذي أدخل البهجة إلى قلبي، في هذا اليوم البائس، هي السيّارة المرسيدس الّتي استقبلتني عند سلّم الطائرة في صالة الطيران الخاص، بمطار الملك خالد الدولي. هذه أول مرّة أركب فيها طائرة خاصة، وأوّل مرّة أهبط عند صالة الطيران الخاص. هكذا إذن يعيش علية القوم... أخشى على نفسي أن أعتاد على مثل هذه المعاملة التي أدرك جيدًا بأنني لن أكون بمقاييس هذا الزمان، والمكان، أهلاً لها!

سائق سوداني، على ما يبدو من ملامحه، يستقبلني، ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة أو حتّى يلقي السلام، يأخذ أمتعتي. بتّ أشك إن كان يقدر على النطق! لا أدري إن كان هذا هوسًا، أم أنّني أرى في ملامح وجهه شيئًا من الامتعاض؟! لعلّه يرى أنني لست أهلا لهذا الاستقبال الفاخر، فما أنا في نهاية المطاف إلا روائي، حتى وإن صادفت رواية له النجاح...



تسير بي السيارة عبر طريق سريع، وسط كم هائل من الأراضي البيضاء؛ يبدو أن رياح الرياض ليست بحاجة للذهاب بعيدًا لكي تأتي بالتراب الذي يكسو سماءها.. يا ترى هل يمتلك إبراهيم العاصم شيئًا من هذه الأراضي البيضاء؟

مشتاق لرؤية قصر مضيفي الّذي أخبرني عنه تركي. من شدّة إعجابه به، ووصفه المبالغ له، خلته أجمل قصر في هذه المدينة؛ ومن معرفتي بتركي، فهو قد يبالغ قليلاً مثل أغلب السعوديين، ولكنّ وصفه في العادة دقيق، ويُعتد به.... أكثر من نصف ساعة الآن منذ أن غادرنا المطار، ولم نصل بعد، مع أن الطريق غير مزدحم..

– «لو سمحت.. كم تبقى من الوقت حتّى نصل؟»

سألت السائق دون أن يجيبني، أو حتّى يلتفت يميله نحوي.... يبدو وكأنّه في حالة من التركيز الشديد في الطريق لكيلا يتسبب لنا في حادث وسط هذه الأجواء المغبرة.

– «لو سمحت... عفواً، يا...».

لم يخبرني عن اسمه؛ لا أدري بماذا أناديه؟

– «يا أخ... لو سمحت».

الرجل لا يستجيب تماما لندائي، وكأنّه لا يسمع... لعلّه أصم؟

مددت يدي اليسرى نحو كتفه الأيمن..

– «لو سمحت...».

التفت هذه المرة برأسه نحوي دون أن يُظهر أي تعبير على وجهه، وكأنّ صاحب هذا الجسد الّذي بجواري في عالم آخر متوارٍ عن الأنظار! شيء ما ليس على ما يرام؛ هذا الرجل في حالة غير طبيعية على الإطلاق!!

– «لعلّه من الأفضل أن تلتفت برأسك إلى الطريق... آسف على إزعاجك».

لا يزال يحدق فيّ، وكأنّه لا يقود سيارة في طريق سريع وسط أجواء غير ملائمة! ما هذا الجنون؟! سوف نصطدم لا محالة!!

– «يا أخ!... يا سيّد!! أنت صاحٍ؟!!»

هززت كتفه بعنف هذه المرة، وقد طفح بي الكيل، فأنا لم آتِ إلى الرياض لكي أموت مثل هذه الميتة العجيبة!! لم يستجب لندائي، لكنّه أدار رأسه نحو الطريق. على الأقل لن يُدخلنا في سيارة أخرى، أو في عامود إنارة! لا أفهم ما الذي أصاب هذا السائق؟! كأنّه في حالة ما بين النوم واليقظة، مثل الذي يسير وهو نائم!

لا أدري أين نحن الآن؟ وإن كان يبدو لي من المنازل الطينية القديمة أنّنا في حي من أحياء الرياض القديمة. حتمًا قصر إبراهيم العاصم ليس في هذا الجوار... بدأت السيارة تخفّف من

سرعتها.. توقّفت عند بيت مهجور. لا يوجد أي شخص من حولنا؛ والمنطقة كلّها تبدو مهجورة... ماذا يريد منّي هذه المعتوه؟! أخشى أن أكون قد وقعت بين أيادي عصابة تظاهرت بأنّها من طرف إبراهيم العاصم لكي تختطفني! لعل السائق الحقيقي مقتول، ووُضعت جثّته في صندوق السيارة!!

– «ماذا تريدون مني؟! إن كنتم طامعين في مبلغ الجائزة الّذي حصلت عليه، فأنا مستعد لإعطائكم إيّاه!!»

الرجل لا يرد عليّ... صمتٌ قاتل.. لعله أبكم وأصم.. قد تكون هذه فرصتي لكي أقفز من باب السيارة، ثم أجري بعيدًا.

فتحت الباب على عجل، ثم انطلقت بين أدراج الرياح.. وأنا أنظر خلفي، ولكن... لا يبدو أن أحدا يجري ورائي.. توقفت قليلا لكي ألتقط أنفاسي... فتذكرت أننا في القرن الحادي والعشرين، ويوجد اختراع اسمه الهاتف الجوال!! أخرجته على الفور، ثم ضغطت على الرقم المبرمج عندي...

– «تركي! ما هذا البلاء الّذي وضعتني فيه؟!! مصيبة يا تركي... مصيبة!!!»



- «أنا في غاية الحرج منك! لا أعرف كيف حدث ما حدث... جعفر يعمل عندي منذ سنين، ولم يصدر منه قط أي تصرف غير لائق، ولهذا حرصت على أن أرسله لك دونًا عن غيره من باقي السائقين... أعتذر لك بشدة! حقًا لا أدري ما الذي جرى له... وإن كنت... وإن كنت أخشى أن يكون ما حدث له علاقة... بذلك الأمر!»

اضطررت للانتظار ساعتين حتّى سمعت هذا الاعتذار من إبراهيم العاصم بعد أن وصلت أخيرًا إلى القصر المنشود في منطقة نائية من جنوب الرياض. ظللت وسط المباني الطينية المهجورة أنتظر سائقًا آخر أرسله لي مضيفي بعد أن أخبره تركي بما جرى... علمت من السائق الجديد أن هذه المنطقة يرتادها المشعوذون وتجار المخدرات، ولكن من حسن حظي لم يكن لهم وجود اليوم بسبب سوء الأحوال الجوّية! لوهلة كدت أطلب من السائق أن يعيدني إلى المطار، خاصة بعد هذا الاستقبال الحافل الّذي صادفته!

- «عن أي أمر تتحدث؟» أسأل إبراهيم العاصم.

- «أنت تعلم.. أقصد الأمر الذي تكرّمت بالحضور من أجله... السحر!»

لولا القلق الواضح الّذي بدا على صاحب القصر من حشرجة صوته، لأطلقت ضحكة مدوية لهذا الهراء الذي سمعته للتو!

- «لعلّه من الأجدى أن يكشف عليه طبيب، للتأكد من صحته. ربما كان يعاني من ارتفاع في سكّر الدم، أو نوبة صرع... أنا لست طبيبًا، ولكن يبدو لي أن هذا التفسير هو الأقرب إلى الصواب».

-.«إذًا من خبرتك الواسعة، ما جرى لجعفر... ألم يكن من أثر ال.. السحر؟»

بصوت خافت نطق كلمة «السحر» وكأنّه خشي أن يسمعه ذلك الساحر العظيم الّذي في مُخيّلته! حقًا لا أفهم كيف يمكن لرجل أعمال ثري، حاصل على شهادة جامعية من أمريكا، أن يكون بهذه السذاجة؟!

- «كل شيء جائز، ولكن علينا أولاً أن نتأكد من خلوّه من الأمراض الّتي قد تكون السبب فيما جرى».

- «ما شاء الله عليك، لا تفوتك شاردة... هذا ليس مستغربًا من شخص مثلك!»

حسنًا.. عليّ أن أتقمص الدور حتّى نفرغ من هذه السخافة



الّتي نحن فيها… لا أعلم كيف سأتحمّل أسبوعًا كاملا وسط هذا الجنون!

- «أين هي العلامة الّتي وجدتها؟»

- «هنا في درج المنضدة». قال وهو يتحرك نحو منضدة تبدو من كم الأوراق الّتي عليها، والملفات، بأنّها تستحوذ على النصيب الأكبر من وقته في القصر أثناء اليقظة. تقع في زاوية قريبة من نافذة تطل على الحديقة الأمامية للقصر؛ ومن حولها خزانة ضخمة للكتب. يبدو لي أنّه كما ذكر تركي، قارئ نهم؛ فالحجرة الّتي نحن فيها أشبه بمكتبة مُصغّرة فاخرة… شيء يلفت انتباهي على الفور. الحجرة لها بابان؛ الباب الّذي دخلت منه عبر الحديقة الأمامية، وباب آخر لعلّه متّصل بداخل القصر.

فتح إبراهيم العاصم الدرج، حتّى يزيحه تمامًا من مكانه، ثم وضعه على المنضدة. العلامة تبدو واضحة في الطرف بعد أن أخرج الدرج، مرسومة بدقّة بالغة، كما رأيتها في الصورة الّتي شاهدتها للمرة الأولى في جوال تركي، ومن بعد ذلك لمرّات عديدة عندما احتفظت بنسخة في جوّالي: نجمة خماسية تتوسط دائرة مكونة من ثعبان يبتلع ذيله. الفرق الوحيد الّذي بينها، وبين العلامة الّتي في رواية «صائد الساحرات» هي تلك الأحرف الّتي بين أضلع النجمة… لولا هذا الفارق الرئيسي، لقلت إنّ الفاعل نسخ العلامة من الرواية.

- أول ما رأيتها تذكّرت روايتك على الفور، فأدركت أنّني مسحور! هذا يفسّر الحالة البائسة التي أنا عليها منذ عام!! لذا قلتُ لنفسي: لا أحد يستطيع مساعدتي سواك أنت، يا صائد الساحرات!!

***

عندما يتحوّل الخيال إلى واقع ملموس، ويجد الإنسان نفسه بين عالمين، ما كان من المفترض أن يلتقيا، فهنا تبدأ الحيرة... الّذي وضع هذه العلامة في درج المنضدة هو بلا شك شخص خبيث، أراد إيهام إبراهيم العاصم بأنّه مسحور، مستعينًا بروايتي، حتّى وإن كان كل ما جاء في تلك الرواية البائسة ليس سوى هراء من وحي خيالي؛ ولكن كيف لي أن أبوح بهذا الأمر، دون أن أفضح نفسي؟! في عالم السحر، كما قرأت في عدة مراجع تدور حول هذا الموضوع، علامة السحر الشهيرة هي النجمة الخماسية التي تتوسط دائرة عادية. أما الثعبان الذي يبتلع ذيله، فهذا مأخوذ من عالم الخيمياء، ولا علاقة له بالسحر. أنا الّذي جمعت بينهما من باب الإضافة. ولكنهما في العادة لا يجتمعان؛ كذلك وجود الأحرف بين أضلاع النجمة الخماسيّة، هذه إضافة أخرى منّي. من الواضح أنّ الّذي رسم العلامة ليس بساحر (إن كان أصلا يوجد في هذا الزمان شيء اسمه سحر). هو شخص خبيث قرأ روايتي ويريد استغلالها للتأثير في شخص صاحب هذا القدر



ولكن ما لا أفهمه، هو لماذا بدّل الأحرف التي جاءت في الرواية بهذه التي أراها أمامي، ولا أعرف مصدرها؟ لعلّه حاول رسمها من الذاكرة، ولكن ذاكرته لم تسعفه، فنتج عنه ذلك الاختلاف.. ربّما. مهما كانت الأسباب، فهي في نهاية المطاف لا تقودنا إلا إلى نتيجة واحدة: أن كل هذا مجرد هراء، لا أكثر؛ ولكن عليّ أن أتظاهر بخلاف ذلك، من أجل الرواية القادمة!

- «كما فهمتُ من رواية صائد الساحرات، هذه العلامة هي الّتي تَعظّم من مفعول رابط السحر، وبالتالي ذلك الرابط ليس بحاجة لأن يكون متواجدًا بالقرب من الشخص المسحور لكي يُحدث أثره، أليس كذلك؟»

- «نعم، هو ذاك». أجيب مضيفي، ثم فجأة تخطر على بالي خاطرة، من وحي ما قاله لي للتو، لعله يكون فيها شيء من الخلاص!

في درج المنضدة، أرى مرسمة سوداء. قد تكون هي الّتي استخدمها الشخص الذي رسم هذه العلامة البلهاء، وإن كان لا يهمني إن كانت هي ذاتها أم لا. أمسكت بها على الفور، ثم شخبطت على العلامة، حتى اختفت معالمها!

- «ماذا تفعل؟» يسألني إبراهيم العاصم متعجبًا.

- «أزيح مفعول السحر عنك». أجيبه بأريحيّة شديدة، وكأن ما أقوم به هو أمر بديهي لا يستوجب الاستفسار، ثم أضيف:

- «لا شك أن الساحر قد صنع رابطا من ذوي الأحجام الكبيرة مما يلفت الانتباه، فاضطر إلى وضعه في مكان بعيد، ولكن كما تعلم أنه كلّما ابتعد ذلك الرابط عن الشخص المسحور، ضعف أثره، مما استوجب رسم هذه العلامة بالقرب منك. فإذا أزحنا العلامة...».

- «بالطبع! كيف لم أفكر في هذا الأمر من قبل؟! إذا أزحنا العلامة بَطُل مفعول رابط السحر، أو على الأقل خفّ تأثيره بدرجة كبيرة!! أنت عبقري بالفعل!! حقًا لا أعلم ماذا كنت سأفعل لو لم يُسَخِّرك الله لي!!»

المسكين يظنني أنقذته من سحر لا يوجد إلا في مخيّلته! أكاد أشعر بالذنب على هذا الخداع؛ عزائي الوحيد أنّ في خداعي له، تكمن راحته.

- «ولكن ما الذي يضمن لنا أنّ الساحر لن يعاود الكرّة مرّة أخرى؟! لا بدّ وأن تكتشف هويّة هذا الساحر، أو الساحرة. لن يهدأ لي بال، حتّى أكتشف من هو ذلك الشخص الّذي يريد بي السوء!»

- «هل لديك تصور مبدئي عمّن يمكن أن يكون؟ من باستطاعته مثلا الدخول إلى هنا في أثناء غيابك؟»

- «من العاملين في القصر فقط هناء الحارب، مديرة القصر، وكنعد، الخادمة الإندونيسية، هما المخولان بالدخول إلى



حجرة المكتب، ولكن كما ترى هناك باب آخر غير الذي دخلت منه، يؤدي إلى البهو، وهو غير مغلق. يستطيع أي شخص داخل هذه الفيلا فتحه، والدخول إلى هنا في غفلة عن الآخرين».

- «وكم شخص يعمل داخل هذه الفيلا؟»

- «بجانب كنعد، توجد عائشة الطباخة المغربية، وثلاث خادمات فلبينيات: ماري، وتيريزا، وليا؛ كما يوجد بتلر إنجليزي اسمه ستيوارت».

- «بتلر إنجليزي؟!» أظهرت تعجبًا دون أن أقصد... كان ينبغي عليّ أن أتمالك نفسي أكثر... لكم أشعر بالخجل من هذا الرجل الذي يستضيفني في داره، لأحرجه على هذا النحو!

- «صدقني، أنا أؤكد لك عن تجربة أنه إذا أردت أن تحصل على أفضل ما عند موظف من العالم الثالث، فاجعل عليه رئيسًا من الغرب؛ والحق يقال إن ستيوارت، بجانب إدارته الجيدة والحازمة للخدم، فهو كذلك يتفانى إلى أبعد الحدود من أجل راحتي. لعلك تتفق معي على استبعاده من دائرة الشك. الإنجليز ليس لهم في السحر، أليس كذلك؟»

هذا إن كان يوجد في الأصل أي سحر هنا أيها المخدوع المسكين، وإن كنت أستبعد ستيوارت هذا الأمر آخر غير الذي تظنه يا صاحب القصر... فالذي رسم العلامة شخص قرأ روايتي، وبما أن

الرواية لم تترجم بعد إلى اللّغة الإنجليزية، فمن المستبعد أن يكون «البتلر» الإنجليزي هو الفاعل، إلا إذا..

- «هل يتحدث البتلر اللّغة العربية؟»

- «لا، فقط اللّغة الفرنسيّة بجانب لغته الإنجليزية؛ ولكن لماذا السؤال؟»

- «لا عليك، ولكنّني متفق معك أنه من المستبعد أن يكون هو الفاعل، ولكن هذا لا يمنع أن يكون شريكًا له، أو على الأقل سهّل له أمره».

- «ماذا تقصد؟ لم أفهم».

- «أقصد يا شيخ إبراهيم أنّ لا أحد ممن لديه القدرة على الدخول إلى هذه الحجرة هو فوق الشبهات، وعلينا أن نضع جميع الاحتمالات في طور الحسبان».

أشعر وكأنّني شرلوك هولمز في قصّة من قصص آرثر كونان دويل.. ليتني قرأت له شيئًا أكثر غير تلك القصّة اليتيمة عندما كنت يافعًا؛ فلعلي لو فعلت، لكانت سهّلت عليّ هذه المهمة!

- «وهل تقصد أن أهل بيتي هم أيضًا محلّ شك؟»

المسكين يبدي استغرابًا لأنّه على قناعة بأنّ الأمر متعلق بسحر ما وضعه ساحر له! أمّا أنا، فلا زلت على قناعة بأن المسألة لا تتعدى أن تكون مزحة سمجة من شخص أراد ترويع هذا الرجل الطيّب لسبب لا أعلمه.

- «كما قلت لك من قبل يا شيخ إبراهيم: لا أحد عندي فوق الشبهات، طالما أن بإمكانه دخول هذه الحجرة».

- «ولكن أهل بيتي؟! استحالة!!»

- «دعنا لا نستبق الأحداث... على حدّ ما فهمت من تركي، أختك تعيش داخل القصر، ولكن بفيلا منفصلة، على خلاف زوجتك، وابنها، وابنتها الذين يعيشون معك هنا».

- «هذا صحيح، ولا أتصور أنّ أحدا منهم يرغب في إيذائي! علاقتي بزوجتي أكثر من رائعة: ندى، وأيمن هما ابناي أنا كذلك، وليسا فقط ربيبيّ... أما هند، فبالرغم من كوننا لسنا دائمًا على وئام، إلا أنّها تبقى أختي، ودمها هو دمي!»

الرجل يبدو متأثرًا إلى أبعد الحدود! كأنني بالغت قليلا في دور المحقق... هي عدم الخبرة، لا شك.

- «على رسلك يا شيخ إبراهيم، على رسلك... أنا لم أقصد ترويعك».

- «أنا متفهم أنّك تقوم نحوي بواجبك الّذي دعوتك من أجله، ولكن...».

- «دعنا الآن من أهل بيتك، ولنركز على العاملين في القصر. أنت ذكرت لي مديرة اسمها هيفاء مُحارب؟»

- «هناء الحارب...».

– «عفوًا، المعذرة... هناء الحارب».

– «صحيح... هي مديرة القصر المسؤولة عن جميع العاملين فيه».

– «وكأنني فهمت منك قبل قليل بأن ستيوارت البتلر هو المسؤول عن الخدم... ما الفرق بين عملها، وعمله إذًا؟»

– «ستيوارت هو المسؤول المباشر عن شؤون الخدم في الفلل الثلاث الرئيسية؛ هذه الفيلا، والّتي تقيم فيها أختي هند، وكذلك فيلا الضيوف الّتي سوف تقيم فيها أنت... أمّا هناء الحارب فهي المسؤولة عن العاملين في القصر بأكمله من سوّاقين، ومزارعين، وفنّيين، وحرس؛ وكذلك حسابات القصر، وصرف المرتّبات، والوارد، والصادر...».

– «هي إذ، مديرة له بمعنى الكلمة... كأنّها مديرة لمنتجع سياحي، على سبيل المثال».

ضحكة أطلقها إبراهيم العاصم؛ لعلّه أعجب بالتشبيه الّذي أطلقته على قصره...

– «نعم، شيء كهذا».

طرقات على الباب الداخلي للمكتبة، قطعت حديثنا، وجعلت إبراهيم العاصم يقوم من على الأريكة. اتّجه نحو الباب؛ وفتحه، ثم استدار نحوي لكي يستأذنني لبضع دقائق، بعد أن أكّد علي

حتى آخذ راحتي في فحص المكان، قبل أن يخرج من حجرة المكتب بصحبة الطارق. أخذت أتأمل المكتبة الّتي من حولي، وكم الكتب المرصوصة على أرففها. لم أر في حياتي مكتبة خاصة بهذا الحجم! يبدو أن إبراهيم العاصم حقًا مولع بالقراءة. شيء جميل أن يجد رجل أعمال كبير وقتًا من أجل الاطّلاع على هذا النحو الّذي يبدو لي ممّا أراه من حولي. خزانة الكتب مقسّمة إلى شتّى أنواع المعارف، كما في المكتبات. هناك ركن كبير للرواية، وكما هو متوقع، أجد «صائد الساحرات» في الصدارة مع روايات أخرى كثيرة قرأتها، من عيون الأدب العربي والعالمي، وأخرى سمعت بها لشهرتها، ولكنني لم أقرأها، مثل رواية «الفتاة ذات وشم التنين» لروائي سويدي اسمه ستيج لارسون، ورواية «جريمة في قطار الشرق السريع» لأجاثا كريستي. مع الأسف لا يوجد أي أثر لرواياتي الثلاث الأولى، كما توقعت، وكأنّها سقطت من الحسبان، أو لم يعد لها وجود في عالم الروايات.. أنا «صائد الساحرات» ، و«صائد الساحرات» أنا... كأنّه يجب عليّ أن أتنصل من الماضي لكي أمر عبر بوّابة المستقبل، ليتم استقبالي من قبل الجميع بأذرع مفتوحة، فأصطفّ بجوار كوكبة من الناجحين!

- «الفيلا جاهزة؛ تم تنظيفها من التراب الّذي ألقته هذه العاصفة الّتي أتتنا بغتة». جاء صوت إبراهيم العاصم دون أن أتنبه لدخوله إلى المكتبة أثناء استغراقي بين ثنايا أرفف مكتبته الفارهة...



- «اذهب، واسترح قليلا، ثم نلتقي على العشاء مع باقي أفراد الأسرة. لا أحد غيري، وتركي، يعرف السبب الحقيقي لمجيئك. بالنسبة للجميع، أنت ضيف جديد من ضيوفي الّذين أستقبلهم على مدار العام، من المبدعين أمثالك؛ كلٌ بحاجة إلى مكان هادئ لكي تنهي فيه روايتك الجديدة،بعيدًا عن الأضواء، فاستضفتك أنا هنا هذه الفترة».

- «حجّة ذكية، ومعقولة».

سرت مع صاحب القصر إلى الباب الداخلي للقاعة.. فتح الباب لي، فعبرت من خلاله إلى بهو كأنه جاء من قصور ألف ليلة وليلة..يا إلهي! ما كنت أتخيل أن كل هذا الثراء قد يجتمع في مكان واحد! أذهلني المنظر. لم أر في حياتي أرضًا رخامية بهذه النقاوة... ولا ثُريّا بهذا الحجم الكبير! منسدلة من سقف شاهق، أحجارها كأنها مصنوعة من ماس، وليس أحجار الكريستال! سجاجيد شيرازية مصنوعة من حرير... منحوتات فنّية لا أدري لمن، ولكنّها في غاية الجمال... لوح جدارية تبدو عتيقة... هذا البهو هو أقرب لمتحف فني من الطراز الرفيع!

- «ستأخذك هناء، مديرة القصر، إلى فيلا الضيوف. إن احتجت إلى أي شيء، فما عليك إلا أن تطلبه منها».

وسط ذهولي، أنتبه إلى وجود تحفة فنّية أخرى، ولكنها هذه المرّة هي من صنع الخالق! امرأة لا تتعدى الثلاثين على الأكثر،

مرتدية فستانًا ضيّق الخصر، يتعدى ركبتيها بقليل، تمدّ لي يدها اليمنى لكي تصافحني، وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة ساحرة تُبرز أسنانها اللؤلؤية المرصوصة بين شفتين مكتنزتين توسّطتا وجنتيها البارزتين.

- «أهلا بك في قصر العاصم... تشرّفت بمعرفتك».

- «الشرف لي».

أردّ لها الابتسامة، والتحيّة، وأنا أصافحها مستنشقًا رائحة العطر الزكيّة الّتي تفوح منها... يبدو لي أن كل شيء في هذا القصر جميل!

كنتُ أحسب أنّ جمال هناء هو ما أهّلها للعمل هنا، ولكنّني وجدتها في غاية المهنية. لا تتحدث كثيرًا، وكلماتها مختصرة، وتفي بالغرض. أخذتني إلى سيارة بي إم دبليو بيضاء كانت تنتظرني في الخارج. ركبَتْ معي السيارة ثم قالت:

- «الطريق من هنا إلى فيلا الضيوف ليس بعيدًا، عشر دقائق مشيا فقط، ولكنّنا سنستخدم السيارة هذه المرّة بسبب الأجواء المغبرة. هذه السيّارة، وسائقها إدريس سوف يكونان تحت أمرك طيلة فترة إقامتك».

- «بالمناسبة، هل تبيّن لكم سبب الحالة الّتي أصابت السائق الآخر الّذي استقبلني في المطار».

- «مازال يجري بعض الفحوصات في المستشفى، ولكنّ حالته مستقرّة الآن. أشكرك على اهتمامك به، بالرّغم ممّا جرى؛ كما أقدّم لك اعتذاري».

- «وما ذنبك أنت لكي تعتذري. أنا واثق بأنّ ما جرى لم يكن مقصودًا. كلّ منّا معرّض لأن يمرض فجأة؛ خُلق الإنسان ضعيفًا».

أحزنتني عليها. المسكينة تلوم نفسها على ما جرى لي!

- «مهما كان فأنا المسؤولة عن القصر، بجميع موظفيه، وكل ما يصدر عنهم من تصرفات... أشكرك على تفهّمك، وسعة صدرك».

الطريق بأشجاره المتراصة على جانبيه، وأشرعة أغصانه، سار بنا إلى حافة البحيرة الّتي ذكرها لي تركي. هي أكبر بكثير مما تخيّلت. لا أدري من أين أتوا بكل هذا الماء من أجل ملئها، ونحن وسط صحراء قاحلة؟! تذكرتُ قصر غانم الساعدي الّذي وصفه منذر القباني في رواية «فرسان وكهنة». لا أستبعد إن كان قد استلهمه من هذا القصر، فلعلّ إبراهيم العاصم استضافه هو الآخر. كنت أحسب أنّ القباني بالغ جدًا في وصف ذلك القصر، ولكن ما رأيته حتّى الآن يجعلني أظنّ أنّه على العكس، قد اقتصد!

- «هذه الفيلا الّتي تقيم فيها الدكتورة هند أخت الشيخ



إبراهيم؛ وهناك، على الجانب الآخر من البحيرة، فيلا الضيوف».

الفيلل الثلاث تحمل الطابع الفرنسي ذاته، وإن كانت تختلف في الأحجام. بالطبع فيلا صاحب القصر هي الأكبر والأجمل، والأفخم، ثم تليها الفيلا الّتي تسكن فيها أخته. فيلا الضيوف هي بطبيعة الحال الأصغر بين الفلل الثلاث، وإن كانت لا تزال تبدو لي كبيرة، وتكفي لإيواء أكثر من أسرة! كل شيء في هذا القصر يبدو لي غريبًا، ومبالغًا فيه... مبانيه، وحتّى موظّفوه!

- «وصلنا... أرجو أن تكون إقامتك سعيدة. إن احتجت إلى أي شيء، فهذا كرتي به جميع أرقامي».

- «شكرًا... أنا على ثقة بأنّ كل شيء سوف يكون على أكمل وجه».

- «كما تستطيع سؤال كنعد عن أي شيء يتعلّق بالفيلا. ستكون في خدمتك طيلة فترة تشريفك لنا. هي أفضل الخادمات هنا في القصر، والشيخ إبراهيم أصرّ على ألا يخدمك أحد غيرها».

قالت جملتها الأخيرة مشيرة إلى الخادمة الإندونيسية الّتي كانت عند مدخل الفيلا تنتظر قدومي. هي حتمًا الّتي ذكرها لي إبراهيم العاصم، قبل قليل، والّتي يدور حولها الشك برسم تلك

العلامة في درج المنضدة... الماكر، جعلها تخدمني لكي أتحقّق منها عن قرب، دون أن أثير الشبهات!

أسير نحو مدخل الفيلا، حيث تقف كنعد، فاتحة لي الباب، راسمة على وجهها ابتسامة عريضة، وكأنّها سعيدة بملاقاتي... تبدو لي أنيقة المظهر برداء الخادمات الأسود. لعلّها لا تتجاوز الثلاثين من العمر، وإن كنت أجد صعوبة في الحكم على أعمار أصحاب العرق الآسيوي. مظهرها مقبول... ليست بالقبيحة، ولا الجميلة. لا شيء في مظهرها يجعلني أشكّ فيها، وإن كان هذا لا يعني أي شيء، فأنا في حقيقة الأمر لست بالخبير في مظاهر الساحرات، على خلاف ما يعتقده الكثيرون.

لقد بدأت مهمتي الّتي جئت من أجلها إلى هذا القصر العتيق... بحق لا أدري من أين أبدأ، أو ما الّذي يجب عليّ فعله؟! كلّ ما أعلمه أن شخصًا ما رسم علامة شبيهة بتلك الّتي أوردتها في روايتي الأخيرة، ولا أظن أن ذلك كان على سبيل المصادفة... مع الأسف، شئت أم أبيت، رواية «صائد الساحرات» أصبحت طرفًا عجيبًا في هذه اللّعبة الغريبة!



لم أدّخر جهدًا في المهمة الّتي جئت من أجلها، ليس حبًا في شخص إبراهيم العاصم، وإن كنت قد بدأت أتعاطف معه، ولكن لرغبتي في إنهاء هذه المهمة في أسرع وقت ممكن، حتّى أعود إلى حياتي في جدّة؛ ولأن الشبهة تحوم حول الخادمة الإندونيسية كنعد، كان من البديهي أن أفتعل الحديث معها، في محاولة لفهم شخصيتها، ودوافعها، ونوازعها. كم تفاجأت عندما علمت منها بأنّها جامعية، خرّيجة صيدلة مثل أيمن، ربيب إبراهيم العاصم، ولكنّها ظلّت عاطلة عن العمل بعد تخرجها، إلى أن وجدت وظيفة خادمة في أحد فنادق جاكرتا، ومنذ نحو عام ونصف تم استقطابها من قبل هناء الحارب للعمل هنا في القصر، بعد أن أشاد بها مدير الفندق الّذي كان يمتلك فيه إبراهيم العاصم حصّة صغيرة، وباعها...

الأعراض الّتي يعاني منها إبراهيم العاصم بدأت منذ نحو عام، أي بعد قدوم كنعد. هل هي مصادفة يا ترى؟ هل من الممكن أن تكون الأعراض الّتي حيّرت الأطباء، ما هي إلا من أثر سمّ ما، بطيء المفعول، قامت بوضعه كنعد في الشراب، أو الطعام؟ ولكن ما هي مصلحتها من فعل ذلك؟ من حديثي

معها، بدت لي كنعد امرأة عاقلة، ومتعلمة تبحث عن لقمة عيش دون مشاكل. هل أساء لها صاحب القصر بطريقة ما، فأرادت الانتقام منه؟ لا تبدو لي هذه الإنسانة، الّتي تحدثت معها قبل قليل، مستاءة من شيء ما؛ وعلى العكس تماما، كأنّني أراها سعيدة بعملها هنا في القصر، وفخورة به... ولكن... لعلّها امرأة مخادعة، تتظاهر بغير ما تبطن؟! إن كان هذا هو الأمر، فأي شيء تبطنه كنعد؟! بحسب ما شاهدت في بعض الأفلام البوليسية - ومشاهداتي لهذه النوعيّة من الأفلام قليلة جدًا - لكلّ جريمة يوجد دافع؛ فما هو دافع هذه الخادمة الإندونيسية. إن كانت هي من رسمت تلك العلامة؟ هل لاحظت رواية «صائد الساحرات» في المكتبة، ورأت مدى اهتمام إبراهيم العاصم بها، فقرّرت محاكاة العلامة الّتي على وجه الغلاف من أجل ترويع مخدومها؟ ولكن يبقى السؤال: لماذا؟! وما الهدف من كل هذا؟! لا أجد إجابات منطقية عن كل هذه الأسئلة الّتي تراودني حول هذه الخادمة الإندونيسية، ولذلك أميل إلى استبعادها، على الأقل في الوقت الراهن، وحتّى يستجد في الأمر جديد... شعور بدأ ينتابني بأنّ المسألة برمّتها قد تكون أعقد بكثير ممّا كنت أتصوره حين قبلت هذه المهمّة العجيبة!

***



جاءتني رسالة نصّية من مديرة القصر، أثناء شرب الشاي الأخضر الّذي أعذته لي كنعد، بأن موعد العشاء مع «الشيخ» إبراهيم بعد ساعة ونصف... جلست أمام نافذة تطل على منظر خلاب في ظهر الفيلا. أمطار خفيفة بدأت تتساقط، لتزيح أثر التراب من السماء، وتلطّف الأجواء. يبدو أن ربيع الرياض متقلّب المزاج، ولا يستقر على حال... لدي رغبة في استغلال الوقت المتبقي لموعد العشاء، حتى أستكشف هذه الحديقة الخلفية الممتدّة على ملء البصر بزهورها، وأشجارها، وإضاءتها الليلية الساحرة...

خرجت من باب زجاجي في الخلف، فسمعت على الفور صوت خرير مياه على بعد أمتار، وكأنّه نهر صغير شقّ طريقه من البحيرة الأمامية... يا له من منظر خلّاب! كيف يمكن للمال أن يصنع من الخلاء جنة غنّاء؟! هذا المكان حتما يحثّ على التأمل؛ فله سحر آخر غير ذلك الذي جئت من أجله؛ سحر الجمال، والفن، والإبداع!

- «أنت أول ضيف أراه يستكشف الحديقة الخلفية، قبل أن يتمشى حول البحيرة الأمامية. لعلّ ذلك يعكس حبك للغموض».

لا أدري من أين جاءت، وكيف ظهرت فجأة؟ ولكنّني لوهلة شعرت بالريبة عندما سمعت صوتها قادمًا من بين الأشجار، وسط الظلام، فظهرت فجأة أمامي امرأة خمسينية مرتدية



جلابية خليجية مزركشة، يكاد لونها الداكن ينصهر مع ظلمة الليل.

- «آسفة، لم أقصد ترويعك». بادرتْ بالاعتذار قبل أن أنطق بكلمة ردًا على ما قالته قبل قليل، وكأنّها استشعرت ريبتي.

- «صوت خرير المياه أثار فضولي... هذه أول مرّة أرى فيها جدولا في السعودية».

- «أنت لم تذهب إذًا إلى منطقة عسير أو الباحة. السعودية ليست كلها صحاري لجد، وإن كان من لديه المال يستطيع أن يصنع لنفسه قطعة من الجنّة وسط الصحراء، ويضع فيها ما يشاء من البحيرات، والجداول، والأنهار؛ لكنها تبقى مجرد طبيعة مصطنعة، ليست مثل الأصل... المعذرة لم أعرفك بنفسي. أنا هند العاصم، جارتك في الفيلا المقابلة».

جملتها الأخيرة، وهي تمدّ لي يدها اليمنى لكي تصافحني، صاحبتها ابتسامة تبدو لي مصطنعة، مثل هذا الجدول، والبحيرة الأمامية الّتي امتدّ منها...

هذه هي إذًا أخت صاحب القصر، الّتي درست في أرقى جامعات أوروبا، والّتي تُدرّس الآن بجامعة الملك سعود، وتترأس فيها قسم الأدب العربي... تبدو بسيطة في مظهرها؛ لا أرى أي أثر لمساحيق التجميل في وجهها، وكأنها لا تخشى من إخفاء سنّها الحقيقي الذي تجاوز الخمسين، ويبدو ظاهرًا عليها.

- «تشرّفت بمعرفتك، وأنا...».

- «أعرف من تكون جيدًا. لقد تابعتك منذ روايتك الأولى الّتي صدرت قبل عدة سنوات. طبعًا حينها لم تكن بالشهرة ذاتها الّتي أنت عليها الآن؛ لكن من وقتها، وأنا حريصة على قراءة جميع إصداراتك».

ياااه... منذ فترة لم ألتق بشخص قرأ أعمالي الأولى! أخيرًا إنسان قرأ الروايات الثلاث الأولى، دون أن أكون قد أهديته إياها؛ حسبت أن ذلك الفصيل من البشر قد انقرض!

- «حتمًا لاحظت فرقًا كبيرًا بين الرواية الأخيرة، والثلاث الّتي سبقتها».

أقولها! شاعرًا بالخجل الشديد! وددت أن أستسمحها من الهبوط الكبير في المستوى، الّذي حتمًا أستاذة مثلها في الأدب العربي قد لاحظته!

- «بالتأكيد هناك تطور كبير في المستوى، ولذلك لم أستغرب فوزك بجائزة الرواية العربية».

ماذا؟!!

- «أعمالك الثلاثة الأولى لا شكّ جيّدة، ولكنّها متأثرة إلى حد كبير بأعمال الروائي الفرنسي ألبير كامو، في الأسلوب والمضمون، لذلك لم أشعر حين قرأتها بأنّني أقرأ لروائي



منفرد له طابعه الخاص الّذي يميّزه؛ ولكن كل ذلك تغيّر تماماً عندما قرأت صائد الساحرات... هنا فقط أدركت أنّني أمام روائي فذ، صاحب مدرسة جديدة في الرواية العربيّة».

- «مدرسة جديدة في الرواية العربية؟»

وجدت نفسي أردّد عبارتها الأخيرة، ولكن في صيغة سؤال، وكأنّني أريد أن أتأكد من أنّني سمعتها بشكل صحيح... حقّاً لا أدري إن كانت هذه المرأة جادّة في حديثها، أم أنّها تستهزئ بي! أو لعلّها تتحدث عن رواية أخرى غير الّتي كتبتها!!

- «وجدت في تناولك للسحر بعدًا جديدًا لم يتطرّق له أي أديب من قبلك، وتساؤلاتك الفلسفية حول ماهيّته كانت رائعة؛ حقّ... فعلاً سؤال محيّر: ما هو السحر؟ ما الذي يجعل السحر سحرًا وليس شيء آخر، مثل علم مجهول المصدر؟ في الأزمنة السابقة مثلا، كان يُنظر لعلم الكيمياء على أنّه ضرب من ضروب السحر. في القرون الوسطى كان يُعتقد أن الساحرة العجوز لديها القدرة على أن تعود شابة من جديد... اليوم أي جرّاح تجميل باستطاعته أن يفعل ذلك مع أي شخص... الكرة البلّورية الّتي من خلالها يرى الساحر ما يحدث من حوله، أليست هي التلفاز؟ وماذا عن الطلاسم، والحروف الغريبة التي تكوّن التعويذة السحرية؟ ما الفرق بينها وبين المعادلات الفيزيائيّة، والكيميائيّة المعقّدة؟ ما الذي يجعل

هذا علمًا، وذاك سحرًا؟ هل السحر هو الاستعانة بقوّة خفيّة مثل الجن؟ أم أن السحر هو كل ما يَنتج عنه مضرة لطرف آخر؟ أم كلاهما معًا؟ هل معنى ذلك أنّه لو استطاع شخص ما أن يُفرّق بين رجل وزوجته عبر الدسيسة والخداع، ودون الاستعانة بالجن، لا يعد ذلك سحرًا، وإنّما يكون سحرًا فقط إن كان جنّيا متواجدا في المعادلة؟! اليوم استطاع الإنسان أن يصل بعقله إلى آفاق كانت تعد منذ مائة عام فقط ضربًا من ضروب السحر، دون الاستعانة بالجنّ والعفاريت، فهل يعني ذلك أنّ السحر قد اختفى وتلاشى، بعد أن حلّ العلم محلّه؟ أسئلة كثيرة أخذت تراودني بعد أن قرأت روايتك البديعة، جعلتني أدرك أنّني أمام روائي متمكن من طراز فريد، سوف يعيد صياغة الرواية العربية، ويجعلها تحلّق مع الرواية العالمية بكلّ جدارة».

حقًا لا أعلم إن كانت هذه المرأة تبالغ بشكل فج في المديح، أم أنّها فعلا معجبة برواية «صائد الساحرات» إلى هذا الحد؟! أكاد أصدّق ما تقوله!!

- «أشكرك على كل هذا الإطراء، الذي لا أدري إن كنت أستحقه».

- «العفو، ولكن من يعرفني يدرك جيدًا أنّني لست ممّن يجامل... أنا سعيدة حقا أن إبراهيم استضاف أخيرًا أديبا مبدعًا مثلك، بجانب المطربين، والممثلين الّذين لا يستضيف في العادة سواهم».

جملة هند العاصم الأخيرة أثارت فضولي، فهي تخالف الانطباع الّذي أخذته من جذيلي مع أخيها..

- «أولم يتم استضافة كاتب آخر غيري من قبل؟»

ضحكة تطلقها أخت صاحب القصر، لا أفهم مغزاها، ثم بنبرة ساخرة تضيف:

- «لعلّك تكون أول شخص ينطبق عليه وصف المثقف، يبيت في فيلا الضيوف.. إبراهيم بشكل عام ليس من هواة قراءة الروايات. منذ الصغر وهو يعتبرها مضيّعة للوقت؛ كم مرّة احتدم النقاش بيننا بسبب رأيه القاصر هذا».

- «غريبة...».

- «وما الغريب في الأمر؟ كثيرون لا يحبون قراءة الروايات في مجتمعاتنا العربية، ويشاركون إبراهيم رأيه فيها».

- «لم أقصد هذا، ولكنّني لمحت في مكتبته الخاصة كمًا لا بأس به من الروايات».

- «هي في الغالب ليست له، بل لندى، ابنة زوجته، فهي تحب قراءة الروايات، وخاصة التشويقيّة. منذ صغرها وهي شغوفة بأعمال أجاثا كريستي، حتى أحسبها قرأت كل ما كتبته. لقد ورثت حبها للقراءة من أبيها حسين عوض، لا شك».

- «حسين عوض الناقد المصري؟»

- «هو ذاته، عضو لجنة التحكيم الّتي منحتك الجائزة... يا لها من دنيا صغيرة، أليس كذلك؟»

زوج ناهد الأول إذًا هو حسين عوض... غريبة أن تركي لم يخبرني بهذا الأمر... أيعقل أنّه لم يكن على علم؟

- «لا أستبعد أبدًا أن تكون لدى هي من أوعزت إلى إبراهيم باستضافتك... لعلّ هذا يكون أفضل ما قامت به منذ أن قدمت إلينا مع أمّها».

من الواضح أن الأمور بين هند العاصم، وبين أخيها وأسرته ليست في أفضل أحوالها؛ حديثها الفج عنهم مع شخص لأول مرّة تلتقيه لا يُفصح عن مودّة قائمة بينهم! هذا يجعلني أعيد ترتيب تقييمي للأحداث الّتي أتيت من أجل فك طلاسمها... لماذا كل هذا الجفاء يا ترى؟ وهل هو انجفاء الّذي قد يقود صاحبه إلى ارتكاب المضرّة، أم أنّها مجرد سحابة صيف عابرة كالّتي تمرّ على جميع العوائل؟ أنا بحاجة إلى المزيد من التأمّل، والتفكير في الأمر، حتّى لا أصل إلى استنتاج متسرّع قد يلحق الضرر بشخص بريء، لا ذنب له! لعلّه آن الأوان لكي أعود إلى الفيلا، وأسترخي تحت ماء دافئ متدفّق في «البانيو»، قبل أن أتجهّز للعشاء اللّيلة مع مضيفي، وأسرته...

- «على العموم هذه بحق فرصة سعيدة... لقد سررت بحديثي معك، ولعلّنا نكمله اللّيلة على العشاء مع الشيخ إبراهيم».

– «لا أظن ذلك».

– «عفوًا؟!»

– «لا تسئ فهمي، فلا شيء يسعدني مثل الحديث مع روائي كبير مثلك، ولكنّني مع الأسف لم أتلق أية دعوة على العشاء. لعلّ إبراهيم أراد أن ينفرد بك وحده اللّيلة... حتمًا سوف نلتقي في الأيام القادمة لكي نكمل حديثنا... إلى اللقاء».

وما كادت تسير نحو منزلها، حتّى التفتت إليّ فجأة، وقد ظهرت على وجهها ابتسامة غريبة جعلت عينيها الضيّقتين تبدوان، وكأن بريقًا يشعّ منهما...

– «بمناسبة روايات أجاثا كريستي... دائمًا مجالس العشاء هي الّتي تحدث فيها الجرائم، أليس كذلك؟»

ظلّت تنظر إليّ، وكأنّها تتوقّع منّي إجابة أو تعليقًا، وأنا الّذي لم أقرأ في حياتي رواية واحدة لأجاثا كريستي!

– «نعم صحيح، الله يستر!»

أجيبها ممازحًا، وإن كنت في قرارة نفسي قد أخذت أشعر بالريبة من هذه المرأة!



كل شيء في هذا المكان يبدو ظاهره جميلا، ولكنّني مع ذلك بدأت أجده غير مريح، وكأن باطنه يخفي خلاف ما تراه العين ظاهرًا أمامها. لا أدري إن كان هذا الشعور ناجمًا عن عقلي الباطن الرافض لهذه المهمّة التي وجدت نفسي مقحمًا فيها، أم أن حدسي ينذرني بشيء مريب أنا على مشارفه؟! لعلّي أبالغ في تصوّراتي هذه، أو لعلّ شعوري في محلّه. أرجو أن تتّضح الأمور أكثر، عمّا قريب...

جاء السائق في الموعد المحدّد ليأخذني إلى الفيلا الرئيسية للمرّة الثانية هذه اللّيلة. لم يكن إبراهيم العاصم وحده في استقبالي هذه المرّة، وإنما كانت زوجته ناهد معه، وكذلك ابنتها ندى، وابنها أيمن الّذي لم يبدُ متحمّسا للقائي بخلاف أخته، حيث بدا عليها الحماس للقائي بشكل جلي. لعلّ أيمن ينتمي لتلك الفئة من الشباب المتذمّرين دائمًا، والناقمين على الحياة لسبب غير معلوم. لعلّه يرغب في التمرد على كل شيء؛ على عائلته، أو على المجتمع، وعلى كل من ينتمي إليه؛ ولربما على القيم الاجتماعية، حتّى وإن كانت هذه القيم هي التي سمحت له بأن ينعم بهذه الحياة المترفة الّتي أراها من حولي.

كلب صغير ينبح بقوة، انتبهت له عندما اقتربت من ندى، ربيبة صاحب القصر، لكي أصافحها. من الواضح أنه لم يعجبه ما قمتُ به من فعل فيه تعدٍ صارخ على ممتلكاته الخاصة!

- «أعتذر لك بشدّة.. هيركول دائمًا هكذا لا يحب أن يقترب منّي أي شخص لم يعتد هو عليه أولا». قالت ندى بخجل، ثم التقطت كلبها بين ذراعيها، وناولته لستيوارت «البتلر» طالبة منه أن يأخذه إلى غرفته الخاصة! هذا الكلب الصغير الذي لا يتجاوز حجم القطّة، لديه غرفته الخاصة في هذا القصر العتيق! لا أستبعد أن تكون غرفته أوسع، وأكثر بهاء من غرفة رئيس الخدم الإنكليزي هذا الذي يحمله.. هيركول.. هذا الاسم ذو الطابع الفرنسي يبدو لي مألوفًا لسبب ما.. أين مرّ عليّ من قبل؟ تذكّرت... إن لم أكن مخطئًا، فهو اسم شخصية المحقّق الّذي اخترعته أجاثا كريستي، واستخدمته في أكثر من رواية لم أقرأ أيًا منها! من الواضح أن ندى تعشق أجاثا كريستي، حتّى إنها سمّت كلبها على اسم شخصية من الشخصيّات الّتي ابتدعتها «ملكة الجريمة»، كما تُلقّب...

بعد التعارف، وتبادل أطراف الحديث الذي يغلب عليه طابع المجاملة المعتادة، انتقلنا جميعًا إلى صالة مُطلّة على بحيرة القصر. لم أرَ في حياتي حجرة بهذا الثراء الفاحش! أظن التحف

لوحدها التي تملأ المكان، مثل هذه الساعة الجدارية المُرصعة بالذهب والماس، تساوي قيمتها ثمن الحي الذي أسكنه في جدّة! كم يا ترى تبلغ ثروة إبراهيم العاصم؟ لا بدّ وأن أسأل تركي عندما أتحدث معه في المرّة القادمة... الفضول يملؤني! كل هذا الثراء، وليس عند صاحبه ابن يورّثه إياه. في أعراف مجتمعاتنا الشرقية، هذا أمر لا شك يُعد في غاية الحزن. ربما لهذا يعطف إبراهيم العاصم على ابن وابنة زوجته من زوجها الأول، ويعاملهما وكأنهما من صلبه... من النادر جدًا أن أتعاطف مع رجل في غاية الثراء، ولكنني أجد نفسي، دون قصد، أتعاطف مع هذا الرجل الطيّب.

- «أرجو أن تكون فيلا الضيوف مناسبة من أجل إقامتك معنا. إن كان ينقصك أي شيء فلا تتردّد بإخباري أو إخبار هلاء. يهمّني أن تكون إقامتك معنا في غاية الراحة».

- «كل شيء على أفضل ما يرام. لقد غمرتني بكرمك يا شيخ إبراهيم».

فعلاً لقد غمرني بكرمه... أتمنى أن أستطيع مساعدته من أجل تجاوز المحنة التي يمّر بها... هذا الرجل لقد حباه الله بالمال الوفير، ولكنّه سُلب راحة البال. أنا واثق بأنّه في سبيل استعادة صفاء ذهنه، هو على أتم استعداد لأن يتنازل عن نصف ثروته! فما فائدة المال إن لم يسعد صاحبه؟

- «أنت شرّفتنا. لا تتصور مدى سعادة إبراهيم عندما علم بأنك وافقت على استضافته لك.. أخبرك سرًا.. لقد شعرت، وكأنه استعاد من جديد حيويّته الّتي فقدها منذ عام».

عفويّة السيدة ناهد في الحديث جعلتني أشعر بالرأفة تجاهها. هي حتمًا لا تدرك الّذي أصاب زوجها في السنة الأخيرة، حيث لم يخبرها بالأمر، لكن الذي يتّضح لي من حديثها أنها لاحظت شيئًا قد تغيّر فيه... قلب الزوجة المحبّة لا شك.. إلا إذا... إلا إذا كانت هذه مجرّد تمثيلية تحاول من خلالها صرف الشكّ عنها! هل من الممكن أن تكون هي من وراء خزعبلات السحر هذه؟! صائد الساحرات، الّذي من المفترض أن أكونه، ينبغي ألا يستبعد أي شخص عن دائرة شكّه، مهما بدا له في الوهلة الأولى بريئًا...

- «ماما، لا داعي لكل هذا القلق... بابا إبراهيم ليس به شيء! هي مجرد معاناة من إرهاق العمل. صحّته ما شاء الله، أمسك الخشبة، ولا شاب في العشرين!»

- «الله لا يحرمني منكم جميعًا».

احتضن إبراهيم العاصم زوجته، وابنتها في مشهد يُستدَل منه على مدى ترابطهم، وقد بادلتاه العاطفة والعناق ذاتهما... إن كانتا هاتان المرأتان تتظاهران بحب هذا الرجل، فهما بحق يستحقان جائزة الأوسكار في التمثيل!

لكنّ شيئًا في المشهد كان ناقصًا... أيمن عوض. هذا الشاب

يبدو عليه جمود ملحوظ. هو غاضب من شيء، ولا يتوانى في إظهاره. جالس في ركن بعيد عنّا، مشغول مع هاتفه الذكي، غير أبه باستعراض عاطفته تجاه ولي نعمته الّذي أخذه في كنفه، على خلاف أمه، وأخته... هل هذا التصرف يجعله محل شكّ؟ ربّما... لكن لو كانت هذه رواية بوليسية تقليدية، فلا أظن أن الجاني سوف يلفت الأنظار إلى نفسه من خلال هذه التصرفات الفجّة!

- «أيمن، ارحم (أيفونك) وتعال شاركنا الحديث».

نادت ندى أخاها، ولكن دون فائدة، ممّا جعل أمّه تتجه نحوه، وقد بان عليها الحرج.

- «هو دائمًا هكذا في عالمه الخاص». أضافت ندى، هذه المرّة موجهة حديثها لي.

- «لا عليك، الشباب دائمًا هكذا». قاطعها إبراهيم العاصم دون أن يظهر أي استياء، فما كان بوسعي إلا أن أؤيد ما قاله.

- «يبدو أنك من عشاق أجاثا كريستي، حتّى إنك سمّيت كلبك على اسم الشخصية الشهيرة التي ابتدعتها: هيركول بوارو». جملة اعتراضية منّي في محاولة لتغيير سياق الحديث، وإزاحة الحرج الّذي عمّ الأجواء.

- «ألاحظت؟! أنا فعلا من عشاق أجاثا كريستي، وقرأت جميع



رواياتها! ماذا عنك؟ حتمًا أنت أيضًا من قرائها، أليس كذلك؟»

- «بالطبع... أكيد».

لا أدري لماذا كذبت عليها؟ هل شعرت بالحرج من حماسها الكبير لروائيّة شهيرة لم أقرأ لها أية رواية؟ أم أن عقلي الباطن جعلني أجيبها بما تريد هي سماعه، لأنني بدأت أستلطفها؟! هي لا شك جميلة مثل أمها؛ ويبدو أنها ورثت من أبيها، حسين عوض، حبّ الثقافة، والقراءة. الحق يقال: إنه من النادر أن يصادف المرء امرأة جميلة، ومثقفة، وثريّة في الوقت ذاته! يبدو أن الرجل مهما بلغ شأنه، فسيظل ضعيفًا أمام امرأة تجمع ما بين الجمال، والذكاء؛ وكالمسحور سيجد نفسه راغبًا في فعل أي شيء من أجل إرضائها، حتى وإن ادّعى أمرًا هو ليس أهلاً له!

- «أنا عن نفسي أعشق رواية جريمة في قطار الشرق السريع... ما هي يا ترى روايتك المفضلة لأجاثا كريستي؟»

حبال الكذب قصيرة! تسألني ندى عن روايتي المفضّلة لأجاثا كريستي!! أحاول استحضار عناوين رواياتها الأخرى، ولكن لا شيء يحضرني!! ليس عندي إذًا سوى إجابة واحدة عن سؤالها...

- «كذلك جريمة في قطار الشرق السريع.. هي بلا شك أعظم رواية كتبتها على الإطلاق».

- «هل كنت تتوقع أن يكون الجاني هو زوج القتيلة الذي من



المفترض أنه أصيب بطلق ناري في بداية الرواية، بالاشتراك مع خطيبته السابقة؟!»

- «كانت نهاية غير متوقعة على الإطلاق، كما هو حال جميع روايات تلك العبقرية الملقبة بملكة الجريمة!»

شيء تعلمته مؤخرًا، أن الأكذوبة مع الوقت، وفي ظل وجود الظروف المهيأة لها، تصبح هي الحقيقة، والحقيقة تصبح هي الأكذوبة.

- «ألم أخبرك». وجّهت ندى حديثها هذه المرّة إلى زوج أمها الذي ظلّ مستمعًا إلى الحوار دون المشاركة فيه. لم أفهم قصدها من جملتها الأخيرة، ولا سرّ الابتسامة المصاحبة الّتي ارتسمت على وجهها فجأة.

- «بابا إبراهيم يُخالفنا الرأي، ويظن أن أفضل رواية لها هي: موت على نهر النيل». أضافت، وكأنها استشعرت تعجّبي.

- «الحق يقال إن الروايتين جميلتين». أقول كذبًا، وأنا لم أقرأ أيًا منهما.. بدأت أخشى قِصَر حبال الكذب! فإن استمر الحديث أكثر عن روايات أجاثا كريستي، أو غيرها من الروايات البوليسيّة الّتي من المفترض أنني أصبحتُ من أربابها، بالرغم من عدم قراءتي لها، فحتمًا سوف يكتشفون سري!

- «ندى، لماذا لا تأخذي أديبنا الكبير إلى الرواق المطل على

البحيرة حتى يستمتع بجمال المنظر، فلعلّها تثير قريحته الأدبية.

لسبب ما، انتابني شعور بأن ما طلبه إبراهيم العاصم من ربيبته، لم يكن نابعًا عن رغبة في إلهامي أدبيًا... ربكة واضحة شعرت بها قد طرأت عليه، مع التفاتات متكرّرة باتجاه الركن البعيد من الصالة حيث زوجته كانت تتحدث مع ابنها. لا أستطيع تبيان ما يحدث جليًا بينهما، بسبب الزاوية الّتي أقف عندها من الصالة الفسيحة، ولكن يكفيني ما أراه على وجه صاحب القصر من وجلٍ أخذ يظهر عليه، وسرعة استجابة ندى لطلبه، وكأنها تأخذني بعيدًا حتى لا أتبيّن ما كان يحدث..

انتقلنا على الفور إلى الخارج، دون أن يصحبنا إبراهيم العاصم، حيث اتّجه إلى زوجته... كأنّ هناك خلافًا بينها وبين ابنها، لا أعلم له سببًا، ولكنّني بدأت أسمع صوت صراخ قادم من الداخل، دون أن أتبين ما كان يُقال. ندى تبدو محرجة ممّا كان يجري؛ حتمًا قد أدركتْ أنني شعرتُ بشيء غريب يحدث في الداخل!

- «هل صحيح ما كُتب أنّك أجريت عدة لقاءات مع ساحرات حقيقيات من أجل بحث روايتك؟»

خرج منها السؤال دون حماس، وكأنّها تريد فقط صرف اهتمامي عمّا يجري داخل القصر... لا بأس؛ سوف أجاريها، وأخبرها بما تريد سماعه.

- «نعم، التقيت بعدّة ساحرات في أكثر من بلد لكي أفهم طريقتهن في التعامل مع الناس، سواء أكانوا أعداء لهن أم حلفاء».

هراء... كل ما يخرج منّي أصبح هراء من أجل صنع هالة حول الرواية، كما علّمني تركي! مع الأسف ما كنت أتمنّى أن يصل بي الحال إلى هذا الحد، ولكنّه قد صار... الحقيقة هي أنني قد تعرّفت في جدة، عن طريق صديق مشترك، إلى الشيخ أحمد الرافعي الذي كان حينها يتقلّد منصب رئيس شعبة السحر والشعوذة لفرع جدة في هيئة الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، قبل أن ينتقل لاحقا إلى الرياض لكي يتقلد منصبًا أكبر في الهيئة. أخذت منه بعض المعلومات، الّتي بنيت عليها لاحقا من وحي خيالي... نصحني تركي بألا أذكر هذا الخبر لأي أحد، لأنه ليس فيه إثارة كافية، كما أن الهيئة قد تعترض على الزج بها في مثل هذه المواضيع الشائكة. الحقّ يقال: إنني وجدت كل ود وترحاب من قبل الشيخ أحمد، وكنت أتمنى أن أكتب له إهداء في مقدّمة الرواية، ولكن تركي ثناني عن فعل ذلك، ثم طلب منّي اختلاق قصص أكثر تشويقًا لكيفيّة بحثي عن موضوع الرواية.

- «ولم...».

صوت الصراخ يزداد بشكل ملموس، ممّا يجعلني ألتفت دون قصد إلى الباب الزجاجي الفاصل بين الشرفة وداخل القصر، قاطعًا حديث ندى.



- «ولم تخش حينها من ردة فعلهن عندما يعلمن بأنك كنت تحضر لرواية تفضح أسرارهن؟»

تُصر على المضي في حديثها لكي تصرف التباهي عن الصراخ الدائر على الجانب الآخر من الباب الزجاجي.

- «لقد أخذت كافة الاحتياطات. كما أن بعضهن لم يمانعن الحديث ظنًا منهن أن لا شيء يستطيع المساس بهن. لعله الغرور، أو الثقة الزائدة بقدراتهن».

ما كدت أنهي الجملة حتى سمعت صوت الباب الزجاجي يُفتح بقوة... ألتفتُ خلفي فوجدت ناهد، زوجة إبراهيم العادم، شاخصة عينيها، فاتحة فاها تريد التحدث، والتقاط أنفاسها في الوقت ذاته!

- «ماما ما الخطب؟!» تجري لدى نحو أمّها مبدية قلقها، دون أن تلتفت إليّ.

- «إبراهيم... إبراهيم!» أخذت ناهد تردد اسم زوجها مشيرة إلى الداخل بسبابتها اليمنى، دون أن تضيف أية تفاصيل، في حالة من الذهول، وكأن أمرًا جللاً قد حدث!



كيف تداعت عليّ الأحداث دون أن أشعر؟ باغتتني دون أن أدري، فوجدت نفسي أمام أمر أنا لست أهلاً له! حسبتني قادمًا إلى نزهة سخيفة من أجل ترويج رواية جديدة، فإذا بي أواجه حدثًا لا أجد له تفسيرًا غير ذاك الّذي كلت أستسخفه! ما حدث ليلة البارحة يجعلني أسير اليوم عبر شوارع حي حطّين لكي أصفي ذهني على أمل أن أجد لنفسي مخرجًا من هذا المأزق العجيب، ولعلّي في الوقت ذاته أتمكن من مساعدة ذلك الرجل المسكين، الّذي فتح لي باب داره، وائتمنني على سره الدفين...
لم أكن أدرك أنّ السيدة ناهد عندما فتحت فجأة ذلك الباب الزجاجي الّذي يفصل بين داخل المنزل وخارجه، كانت كذلك تفتح بابًا يفصل بين قناعة سابقة، وأخرى سوف تليها بعد ساعة ونصف، هي المدّة الفاصلة بين هرعنا إلى جسد إبراهيم العاصم الملقى على السجّادة الشيرازية في الصالون، وحتّى خروج الطبيب الخاص من حجرة صاحب القصر لكي يخبرنا عن تشخيصه للحالة الّتي أصابته...

عندما وجدت إبراهيم العاصم على الأرض فاغرًا فاه، شاخصًا عينيه، حسبته أول الأمر قد خرّ ميّتًا! لكنّ أنينًا خافتًا خرج منه



جعلني أتنفس الصعداء... على الفور أردت الاتصال بالإسعاف، ولكنّ ندى رأت أن الاتصال بطبيبه الخاص هو الحل الأفضل والأسرع؛ وبالفعل جاء الطبيب مصحوبًا بمساعد له، وممرضتين، بعد دقائق قليلة؛ وكأنه لا شغل له، هو ومن معه، غير انتظار أي طارئ يحدث للشيخ إبراهيم العاصم، لكي يأتوا ويسعفوه! إنّها سطوة المال لا شك الّذي يمكّن صاحبه من الحصول على أفضل رعاية ممكنة، قد لا يجد مثلها من هم أقل حظًا...

ساعة استغرقها الطبيب مع إبراهيم العاصم، بعد أن تم نقله إلى حجرته الخاصة، حتى خرج لنا من بعدها ليخبرنا أن ما أصاب صاحب القصر ليس له أي سبب عضوي، بل ليس له أي سبب طبي معروف!

النوم فارق جفوني.. ظللت أفكّر طوال الليل فيما قاله الطبيب، وفي اللحظات الّتي سبقت تلك الحالة الّتي أصابت إبراهيم العاصم. هل أصيب بانهيار عصبي نتيجة الخلاف الذي كان دائرًا بين زوجته وابنها، أيمن؟ إخراجي إلى الشرفة كانت محاولة يائسة لإخفاء ما كان يدور في الداخل بين أفراد الأسرة من نقاش حاد هو أقرب إلى الخلاف الشديد. حاولت بشكل غير مباشر أن أستفهم الأمر من ندى، ولكنها لم تكن في حالة تسمح للنقاش والاستفسار، فآثرت أن أناقش معها الأمر لاحقًا... سؤال ظلّ يلحّ عليّ طوال الليل، ولا يزال يتسلّل إلى خاطري حتى الآن: هل ال...



أصاب إبراهيم العاصم مرتبط بأي شكل من الأشكال بالأمر الذي استدعاني من أجله؟ يا له من سؤال لعين، وكأنّني بدأت أصدّق أن هناك سحرًا وراء الأحداث! لعلّي أبحث لنفسي بشكل ساذج عن رابط أفسر به ما حدث، كما يفعل العوام لكي يفسّروا من خلاله أمورًا عجزوا عن فهمها. يا للسخرية... لوهلة كدت أصبح من هؤلاء الّذين ظللت طيلة حياتي أنتقدهم: العوام السُذّج!

وكأنّني كذبتُ الكذبة، وأخذتُ أصدقها!

***

ساقتني قدماي إلى مجمع فاخر للمطاعم والمقاهي ذي طابع غربي لا يبعد كثيرًا عن القصر. مثل هذه المجمعات نبتت بكثرة في جدة في السنوات الأخيرة، وهأنذا أرى مثلها في الرياض، ولا أستبعد وجودها في مدن سعودية أخرى، كذلك! لكنّ الشيء الذي لفت انتباهي الآن في هذا المجمع هو وجود مقهى ثقافي فيه... «قهوة وكتاب»... اسم لافت وغريب، يتناسب مع الطابع الشبابي للمكان، وإن كان اسمه ليس أغرب من المصادفة الّتي قادتني إليه! أعرف هذا المقهى جيدًا، وإن كنت لم أزره من قبل. هو الذي يديره نوّاف الخضير، والّذي شهد أول تدشين لرواية «صائد الساحرات» في الرياض بعد صدورها بشهرين؛ كانت حينها قد أخذت في الانتشار، وأصداء نجاحها قد بلغت الرياض، والكل كان يتساءل عنها في المكتبات. تعمّد تركي أن يؤخّر إنزالها في



عاصمة البلاد، وكبرى مدنها، ذات سبعة ملايين نسمة، حتى يزيد شغف الأهالي إليها؛ ثم قرّر أن تنزل الرواية في مكان واحد، أصرّ عليه دون غيره.. مقهى «قهوة وكتاب»... الآن أدركت لماذا كان إصرار تركي عليه. مساحته ليست بالكبيرة، مما يجعل أي تزاحم عليه يبدو لافتا، خاصة عندما يضطر الحضور إلى الوقوف في طوابير في الخارج؛ إيهام تسويقي معروف يستخدم بكثرة من أجل تسويق البضائع لكي تبدو أكثر رواجًا، فيقدم عليها من لم يكن يفكر فيها من منطلق السير وراء القطيع؛ ولا يوجد قطيع أفضل من شباب وشابات الطبقة المرفهة الذين يأتون إلى مثل هذا المجمع الفاخر!

أجد نفسي أذهب إلى «قهوة وكتاب»، لكي أطّلع على المكان الذي كان مشهدًا من مشاهد المسرحية التي ألّفها تركي... لا يبدو مزدحمًا في هذا الصباح... طاولة واحدة فقط مستخدمة، يجلس عليها شخصان؛ أحدهم ينظر نحوي، وكأنه تعرف علي، يقول شيئًا للذي أمامه، وظهره نحوي، فيلتفت هذا الثاني إلي. إنه صاحب «قهوة وكتاب»، نوّاف الخضير!

- «ما هذه المفاجأة الجميلة؟! لماذا لم تخبرني بأنك قادم إلى الرياض؟!»

يتقدم نوّاف نحوي، مادًا لي يده، ثم يعانقني عناقا حارا... يبدو في غاية السعادة لرؤيتي. الحق يقال إنني بالرغم من كوني لا

ألتقه سوى مرة واحدة في جدّة قبل عام، إلا أنّني ارتحت له كثيرًا. وجدته إنسانًا في غاية الاحترام، وعاشقًا للكتاب. شغفه بالقراءة لا يقلّ عن شغفي بالكتابة. يحمل رسالة على عاتقه أشفقت عليه منها، وهو أن يجعل العرب يقرؤون مرّة أخرى!

- «والله زيارة أتت بشكل مفاجئ، أحدثك عن تفاصيلها لاحقًا... كنت أسير في الحي، لم أعلم أن «قهوة وكتاب» هنا في هذا المجمع؛ تفاجأت بوجودها فأتيت».

- «يا سيدي هذا من حسن حظّي، ورب صدفة خير من ألف ميعاد».

- «لا يسمعك منذر القبالي تقول صدفة يا نواف، يزعل عليك!» الشخص الذي تعرّف عليّ يمازح نوّافا. وجهه مألوف؛ كأنّني رأيته من قبل.

- «لا أدري إن كنتما التقيتما من قبل؟» يتساءل نواف وكأنّه يقرأ أفكاري...

- «لا مع الأسف».

- «ياسر عبّاس... أنا من أشد المعجبين بصائد الساحرات. أخيرًا رواية تستحق فازت بجائزة الرواية العربية».

- «طبعا ياسر عباس صاحب سلسلة الروايات الشهيرة: بلاد السحر. اللّيلة لديه حفل توقيع لآخر إصداراته، وبالطبع



يشرّفنا تواجدك معنا، إن كان وقتك يسمح، في الساعة التاسعة مساء».

أحرجني نوّاف بطلبه، خاصة بعد الذي قاله ياسر عبّاس عن روايتي.

- «يسعدني طبعًا، ولكن لديّ ارتباط سابق.. إن انتهيت منه مبكّرًا، فسوف آتي، وأحرص على أخذ نسخة موقعة».

- «والله هذا شرف كبير لي أن أهدي كاتبي المفضّل نسخة من إصداري المتواضع».

بالرغم من عدم معرفتي جيدًا بياسر عباس، ولا بسلسلته التي أحسبها من اسمها تدور حول عالم السحر (هذا يفسّر سرّ حماسه «لصائد الساحرات») إلا أنّه يبدو شابًا لطيفًا.. أظنّه من لهجته حجازيا.. لعلّه من الحجازيين المقيمين في الرياض.

- «الأسبوع الماضي كان معنا منذر القبّاني، يوقع على روايته الأخيرة. هو كذلك من المعجبين بصائد الساحرات كثيرًا مع الأسف هو خارج الرياض الآن، وإلّا كنت اتصلت عليه الآن لأخبره بأنّك هنا».

- «يا جماعة أنتم غمرتموني بكرمكم.. لا أظنّني أستحق كل هذا».

- «دعك من التواضع.. أنت تستحق أكثر. يكفي أنك بروايتك الفذّة أعدت للخيال العربي هيبته من جديد»

رواية «صائد الساحرات» أعادت للخيال العربي هيبته من جديد؟! يبدو أنني لم أعد أفهم شيئًا!! كل هذا الإطراء من أجل هذه الرواية السخيفة؟!

- «ولكنك لم تخبرنا... ماذا تفعل هنا في الرياض، وما سرّ هذه الزيارة المفاجئة؟ حتّى تركي لم يخبرني بمجيئك إلى الرياض، مع أنني كنت أتحدث معه على الهاتف قبل يومين».

ماذا أقول له؟! إنني جئت من أجل كشف ملابسات سحر صنع ضد رجل أعمال شهير، من باب الدعاية لرواية جديدة لم أبدأ حتّى في تأليفها!

- «عندي بعض الأعمال الخاصّة، أتيت لكي أقضيها». إجابة صادقة، ولكنّها لا تفصح عن شيء. بما أنني قد أصبحت كاتب أدب الغموض الأول في الوطن العربي، فلمَ لا تكون إجابتي عن سؤاله هي الأخرى في إطار الغموض ذاته...

- «يا سيدي أنت شرّفتنا بمجيئك اليوم.. اثنان من أفضل الروائيين السعوديين هنا في قهوة وكتاب، هذا شرف كبير لا شك يحسب للمكان».

- «العفو يا نوّاف، العين لا تعلو على الحاجب. أنا لست شيئًا بجانب الروائي العظيم صاحب صائد الساحرات».



لا أدري إن كان ياسر عباس بحق معجبًا برواية «صائد الساحرات» إلى هذا الحد العجيب، أم أنه مجامل كبير! أريد أن أفهم، ما سرّ كل هذا الإعجاب؟!!

- «أخبرني بحق، ودون مجاملة: ما الذي أعجبك في الرواية؟»

. لا أدري إن كان السؤال خرج منّي بنبرة لا تخلو من التعجب، أم أنّني وضعته في إطار أشبه بالاستفسار الاحترافي عن الجوانب الّتي راقت له في العمل؟ لقد خرج منّي السؤال بشكل عفوي، ودون تحضير مسبق...

- «يا أخي يكفي أنّك جعلت النقّاد ينظرون إلى رواية الغموض والخيال والتشويق على أنّها شكل من أشكال الأدب، وليست مجرد قصص للتسلية! لكن مع ذلك، رواية صائد الساحرات توجد بها تفاصيل عجيبة بحق! من الواضح أنّك قمت ببحث معمّق لموضوع السحر، ثم أضفت إليه من خيالك. أنا بحكم أنّي أكتب في هذا المجال، أستطيع التنبّه لمثل هذه التفاصيل الدقيقة. خذ عندك مثلا مسألة علامة الرابط السحري الّتي تُشكّل محور الرواية. أنا شخصيًا أعتبرها فكرة جدّا مبدعة، وذكية؛ وكيف جعلتَ الرابط السحري بذاته يدلّ على شخصية الساحر مثل البصمة. كما أن كلمة أبراكدابرا الّتي وضعتها في علامة الرابط السحري على وجه الغلاف كانت جدّا موفّقة، وإن كنت أظن أن الأحرف الآرامية



هي الأدق، وليست الأحرف العبريّة، لأنّي أميل إلى الأبحاث الّتي تقول بأن أصل الكلمة آرامية، وليست عبريّة».

- «آراميّة؟»

«أبراكدابرا» لها أصل، وليست كلمة مختلقة من أفلام الكرتون؟! بحق لقد أثار فضولي ياسر عبّاس!

- «على العموم الفرق بين الأصل العبري، والأصل الآرامي بسيط.. بالعبرية تعني: أخلق كما أتحدث؛ وبالآرامية تعني: أخلق مثل الكلمة... فرق بسيط، كما تعلم. من الواضح أنّك مقتنع أكثر بالأبحاث التي تقول إنّ أصل الكلمة عبري، ولذلك استخدمت الأحرف العبريّة».

فجأة أتذكر العلامة الّتي رأيتها في مكتبة قصر إبراهيم العاصم... كأنّها مأخوذة من غلاف الرواية، ولكن مع فارق بسيط... الأحرف الغريبة المختلفة... هل من الممكن أن تكون؟! معقولة؟!

أخرجت جوّالي على الفور من جيبي، وفتحت ملف صورة العلامة الّتي وجدها إبراهيم العاصم في درج منضّدته؛ وبشكل الي، ناولت ياسر عبّاس جوّالي، دون تعليق..

- «تمام عليك! يبدو أنك قرّرت استبدال الأحرف العبريّة لكلمة أبراكدابرا بالأحرف الآراميّة القديمة... أرأيت يا نوّاف كيف أن

الأدباء الكبار دائمًا ما يبحثون عن الكمال، حتى من بعد نجاح العمل، وبلوغه الآفاق!»

إذًا هذه الأحرف هي للكلمة ذاتها التي وضعتها أنا على وجه غلاف الرواية بين أضلع النجمة الخماسيّة داخل دائرة الثعبان الّذي يبتلع ذيله، ولكن بالآرامية.. يا إلهي! من فعلها يدرك جيّدًا ماذا يفعل، وليس مجرد ناقل أعمى لما ورد في رواية «صائد الساحرات»! هناك أمور كثيرة لا أفهما، ولكن ما بتّ على يقين منه الآن، أنّ شخصًا ما يريد إيذاء إبراهيم العاصم؛ وأنّ الأمر لا يتعلق بمزحة سخيفة مأخوذة من روايتي!

أقوم على الفور من مجلسي، ثم أجد نفسي متّجها إلى خارج المقهى.

- «إلى أين؟!» سؤال يخرج من نوّاف الخضير مُغلّفًا بالدهشة، وهو يراني منطلقًا هكذا فجأة، ودون مقدمات.

- «آسف، ولكنّني تذكّرت موعدًا مهمًا.. أكلّمك لاحقًا».

تخرج منّي الكلمات على عجل، دون أن ألتفت ورائي... يجب أن أذهب على الفور إلى القصر.. أنا واثق بأن نوّافا سوف يعذرني لاحقًا، عندما يعلم الحقيقة.

للمجاملة وقتها، ولكنّها حتمًا ليست الآن!



هل الإنسان كائن شرير؟ بتّ أظن ذلك. فهو على أتم الاستعداد لأن يفعل الأفاعيل في الآخرين من أجل مصلحته، وقد يلجأ لأي شيء مهما كان أثره، في سبيل تحقيق مراده. هل أدركت الملائكة بفطرتها السليمة مدى قدرة هذا المخلوق على إحداث الشرور. عندما سألت ربها: أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء؟ أم أنها شبّهته بمخلوق آخر كان يفسد في الأرض؟ لا أظن أن هناك مخلوقا آخر أقدر على إحداث الفساد من الإنسان... نعم، هذا المخلوق المستعد لأن يقضي على أي شيء قد يعترض طريقه، ويمنعه من السير على الدرب المظلم الذي اختاره لنفسه!! كأن العِلم الّذي تميّز به الإنسان له جانبان. جانب مضيء، وجانب مظلم. يستطيع من خلاله أن يرفع من قدره، ويحطّ من قدر الآخرين. كأنّه في صراع أبدي بين الروح الطاهرة الّتي نُفخت فيه، والوحل الّذي خُلق منه... لكن أيّهما يطغى على الآخر؟ لعلّ هذا السؤال يشكّل كنه رحلة الإنسان على الأرض. فهل يشعّ منه نور لكي يضيء به لنفسه وللآخرين، أم أن الظلام الدامس الذي فيه، كثقب أسود يبتلعه، ويبتلع كل من حوله معه؟!



هل وقع إبراهيم العاصم ضحيّة لإنسان شرّير، يريد النيل منه لسبب ما؟ لا شك عندي في ذلك؛ كما لا شك عندي أنّ هذا الّذي يريد به السوء ليس إلا شخصًا من الدائرة المحيطة به؛ هو من سكان هذا القصر. لا أدري بعد من يكون، ولكن لديّ شكوكي. لا أريد أن ألقي بالاتهامات جزافًا قبل أن أتحقّق من الأمر، ولذا يجب أن أقابل إبراهيم العاصم، حتّى وإن كانت حالته الصحيّة لا تسمح بذلك. لقد استضافني في قصره، واستأمنني على سرّه من أجل مساعدته، وهذا ما سوف أفعله... نعم، أنا لست بطل رواية «صائد الساحرات» ، على خلاف ما يعتقده الكثيرون، ولكنّني على أتم الاستعداد لأن أصبح صائدًا لذلك الشخص الذي يريد السوء بهذا الرجل المسكين، الملقى الآن في غرفته على فراشه، في حالة لا يعلم بها إلا علّام الغيوب!

- «مستحيل أن تقابله الآن، وهو على هذا الحال. الطبيب منع عنه الزيارة... أنا جدًا آسفة».

توقعت من ندى هذه الإجابة على طلبي، ممّا جعلني أعيد النظر في كتمان سر زوج أمها عنها؛ فما رأيته من حسن التعامل بينهما، والودّ، والمحبة، يجعلني أظنّ أنّها أقرب الناس إليه من بعد زوجته. لا شك عندي فيما لاحظته بنفسي، وممّا سمعته قبل ذلك من تركي، بأنها بمثابة ابنته، وليست مجرد ربيبة. أنا بحاجة لحليف من أجل فك غموض هذا الّذي يحدث مع إبراهيم العاصم، ولعلّي لن أجد لي هنا أفضل حليف من ندى عوضًا

خاصّة وأنّها تبدو لي من غير المستفيدين من أي ضرر قد يلحق بصاحب القصر؛ فهي، على سبيل المثال، لن ترثه إن مات، ولعلّها تخسر مكانتها المتميّزة في شركته بعد وفاته... نعم، يجب أن أصارحها... هذا هو أفضل الحلول.

- «هناك أمر هام أودّ إخبارك به».

- «خير».

- «هو متعلق بالسبب الحقيقي لمجيئي إلى هنا».

- «السبب الحقيقي لمجيئك؟ عمّ تتحدّث؟»

- «لا أعرف كيف أفاتحك في الموضوع دون أن أبدو... أبدو معتوهًا! فالأمر برمّته هو أشبه بالجنون، لدرجة أنّني حتّى الآن غير متأكد ممّا يحدث... ولولا ما أصاب الشيخ إبراهيم وما قاله الطبيب عن غرابة حالته، لما فكّرت على الإطلاق في مصارحتك به».

- لقد شغلتني! ما الحكاية؟! أرجوك، لو كانت لديك أية معلومة قد تفيدنا في الكشف عمّا أصاب بابا إبراهيم... أرجوك، ميجب عليك أن تخبرني الآن!»

أرى القلق جليًا في توسع حدقة عينيها... لا أدري كيف ستستقبل ما أنا على وشك الإفصاح عنه؟ ولكن لا بدّ ممّا ليس منه بدّ!

- «شخص ما يحاول إيذاء الشيخ إبراهيم عن عمد، مستخدمًا... مستخدما السحر».

لا أدري كيف خرجت الجملة منّي، ولكنّها خرجت! لو كنت في محلها لحسبتني معتوهًا!!

- «ماذا؟! عمّ تتحدث؟!!»

فجأة يُفتح باب الصالة، ليدخل منه ستيوارت «البتلر» حاملًا معه الشاي، وبعض المعجنات، والكعك. دخوله المفاجئ يقطع حديثنا، ويمهلني برهة من الوقت لكي أعيد ترتيب أفكاري المتبعثرة! لا أدري إن كانت نظرات هذا الشخص تبدو مريبة، أم أن الأحداث الأخيرة جعلتني أرى ما ليس له وجود! يهمّ بصب الشاي لنا، ولكنّ ندى تأمره بالانصراف. لا تود أن تضيّع ثانية دون أن تستمع فيها إلى ما لديّ لكي أفصح عنه!

- «أدرك أنّ الأمر في غاية الغرابة، بل لا يُصدَّق، ولكن... الشيخ إبراهيم استدعاني إلى هنا عبر تركي...».

- «تركي؟»

- «تركي الزايدي الناشر. هو على ما يبدو صديق مقرب إلى الشيخ».

- «رأيته مرّة أو مرّتين مع بابا إبراهيم، ولكن لا أعلم إن كان بالفعل صديقًا مقرّبًا منه».

- «على العموم مدى عمق الصلة بينهما ليس هو المقصود؛ الشاهد في الأمر أنّه طلب منه أن يقنعني لكي أساعده من أجل إماطة اللثام عن هذا الأمر».

أخرجت من جيبي هاتفي الذكي، فاتحا ملف صورة علامة الرابط السحري التي وجدها إبراهيم العاصم، لكي تراها ندى.

- «ما هذه؟ أليست من روايتك؟»

- «هي شبيهة بها، ولكن مع بعض الاختلاف... علامة الرابط السحري التي يستخدمها الساحر لكي يوصل مفعول الرابط السحري إلى الشخص المعني بالسحر، الشيخ إبراهيم في هذه الحالة».

لا أصدق أنني بتّ أصدق هذا الهراء! ولكن من الصعب تجاهل ما هو آخذ يتمثّل أمامي في هذا القصر!! كل الأدلّة تشير إلى صدق ما يحدث لإبراهيم العاصم من... من سحر!!!

- «منذ نحو أسبوع وجدها الشيخ إبراهيم مرسومة في درج منضدة مكتبته الخاصة هنا في القصر. لقد أخبرني أنه كان يشك منذ فترة، قرابة العام، بأنّه مسحور».

- «تقصد منذ أن بدأت معه أعراض المرض؟»

- «نعم، المرض الذي لم يتمكن أي طبيب حتّى الآن من تشخيصه».

- «ولكن.. ولكن.. هذا الذي تقوله مستحيل! سحر؟! مستحيل!! كيف؟! وهذه العلامة، أليست هي من وحي خيالك؟! أقصد أنها فقط في الرواية!»

- «تشبهها ولكن ليست هي. هناك اختلاف بسيط، ولكنّه جوهري».

كيف أشرح لها الأمر دون أن أفضح جهلي؟! «أبراكدابرا»! من كان ليتخيل أن هذه الكلمة المبتذلة لها أصل في دروب السحر؟!!

- «بين أضلع النجمة الخماسية في الرسمة توجد أحرف...».

- «نعم، صحيح. لفتت انتباهي في الرواية، وكنت سأسألك عنها البارحة، لولا ما جرى».

- «هي هجاء كلمة أبراكدابرا».

- «أبراكدابرا؟ كتلك التي تستخدم في أفلام الأطفال الّتي تتناول السحر؟»

- «في واقع الأمر هي كلمة قديمة جدًا، تستخدم في صناعة السحر منذ الأزمان الغابرة. هناك خلاف حول أصل هذه الكلمة إن كانت عبريّة أو آراميّة، وإن كان المعنى متقارب إلى حد بعيد بين اللّغتين... لا أريد أن أشغلك بالتفاصيل، ولكنّني في الرواية استخدمت الحروف العبريّة للكلمة، أما هنا في هذه العلامة، فالحروف المستخدمة هي الآراميّة.



- «وماذا يعني هذا؟»

- «هذا يعني أن الّذي رسم هذه العلامة لم ينقلها من روايتي، إنما هو شخص يدرك تمامًا ماذا يفعل... يدرك تمامًا أن الأصل الآرامي للكلمة هو الأدق. هذا ما اكتشفته لاحقا، وتنويت تصحيحه في الطبعات القادمة للرواية».

ما إن فرغتُ من جملتي حتّى قامت ندى من مجلسها؛ وفي حالة من الذهول، أخذت تدور حول نفسها. لم تحاول إخفاء قلقها، وقد بدا جليًا من نبرة صوتها..

- «مستحيل! لا أصدق ما أسمعه! بابا إبراهيم مسحور؟! كنت أحسب أن مثل هذا الأمر لا يحدث إلّا في الروايات الخيالية، والأفلام، لا في الواقع!! لا أعلم ماذا أقول! مستحيل!!»

- «مع الأسف يا ندى، يبدو أن المستحيل قد أصبح واقعًا، وعلينا التعامل معه، إن أردنا إنقاذ حياة الشيخ إبراهيم».

لحظات من الصمت... وكأنّها تحاول استيعاب ما قلته لها. هي معذورة بلا شك، فالأمر برمّته أقرب إلى الجنون! فعلًا، من قال إنّ الواقع في بعض الأحيان قد يكون أغرب من الخيال، لم يذهب بعيدًا عن الحقيقة.

- «قلتَ لي بأن أعراض السحر ظهرت على بابا إبراهيم منذ نحو عام؟»

- «هكذا أخبرني».

- «غريبة.. هي الفترة ذاتها الّتي...».

لم تكمل ندى جملتها. كأنّها أرادت أن تخبرني شيئًا، ثم فجأة عدلت عن الأمر... ماذا أرادت أن تقول يا ترى؟

- «أرجو أن تصارحيني بكل شيء كما صارحتك. أية معلومة مهما بدت تافهة، أو عجيبة، قد تفيدني من أجل كشف الأمر، ومساعدة الشيخ إبراهيم».

- «لعلّها مجرد مصادفة... لا أظنّ أنّ هناك رابطا... إلا إذا... إلا إذا هو الآخر قد سُحر».

- «عمّ، وعمّن تتحدثين؟ ندى، يجب أن تثقي بي كما وثقت أنا بك، وصارحتك بكل ما لدي».

لقد أثارت فضولي! هل الأمر يتعدّى إبراهيم العاصم؟ حتمًا هناك شيء يجول في خاطرها، ويؤرّقها! مسألة تبدو حسّاسة إلى حد التردّد في إخباري عنها.

- «منذ نحو عام اكتشفت صدفة أن... أن أيمن على علاقة بطنط هند».

- «طنط هند؟ تقصدين هند العاصم أخت الشيخ إبراهيم؟!»

- «قلت لأيمن حينها أنه يجب عليه إنهاء هذه العلاقة على الفور قبل أن تعرف ماما، أو أن يعرف بابا إبراهيم، وقد

وعدني بأن يفعل بشرط ألا أخبر أحدا، وقد صدّقته، ولكن...»

لكن ماذا؟! أكملي يا ندى، ليس الآن وقت الصمت! تضع حدّ كفيها على وجهها، وكأنّها لا ترغب في تذكر أحداث أليمة؛ أو تودّ ألا تكمل، ولكنّها تشعر في الوقت ذاته بضرورة الإفصاح لي بالحقيقة كاملة على أمل أن تفيدلي هذه المعلومة من أجل مساعدة زوج أمّها الّذي تعتبره بمثابة أبيها.. الراقد على فراشه بين الحياة والموت!

- «ولكنّه لم يفِ بوعده لي، حيث اكتشفت قبل أسبوعين، أنهما لم ينهيا تلك العلاقة، ولا يزالان يلتقيان سرًا في منزلها، من وراء ظهورنا جميعا! حينها تملّكني الغضب... فذهبت إلى ماما، وأخبرتها بكل شيء!»

- «هل كانت مشادّة مساء البارحة بين والدتك، وأيمن بسبب هذا الأمر؟»

- «أنت لاحظت إذًا... مع أنّني أخذتك إلى الخارج حتّى لا تنتبه».

- «والشيخ إبراهيم كان على دراية؟»

- «نعم أخبرتّه ماما، مع أنّني طلبت منها ألا تخبره، ولكن عندما تمت المواجهة الأولى حول هذا الأمر بين ماما وأيمن، قال لها بأنّه يحب طنط هند، وينوي الزواج منها؛ حينها لم تجد ماما حلا لهذه المصيبة سوى إخبار بابا إبراهيم لكي يتدخل!»



شيء عجيب لم يخطر على البال أبدًا! أيمن، ذلك الشاب الرشيق الوسيم، يقع في غرام امرأة من سنّ أمّه؟! كما أن هند العاصم بدت لي، من تلك المقابلة العابرة، وكأنها أعقل من ذلك... تقيم علاقة مع ربيب أخيها؟!! ما هذا الجنون الذي وجدت نفسي فيه؟! كأنني أعيش أحداث فيلم هندي!

- «وكيف تصرّف الشيخ إبراهيم عندما سمع بالخبر؟ أصدقك القول، إنّني لم أشعر البارحة بوجود توتر ملحوظ بين الشيخ إبراهيم وأيمن، على خلاف ما لاحظته بين والدتك وأخيك».

- «بالفعل ماما هي التي ثارت عندما علمت بالأمر، بل وهدّدت أيمن بالطرد، على خلاف بابا إبراهيم الذي كان أكثر هدوءًا، وكأنه... وكأنه كان متقبلا للأمر...».

- «ماذا؟!»

- «يبدو أن التعبير قد خانني... أنا لم أقصد على الإطلاق أن بابا إبراهيم وافق على هذه المهزلة، ولكن ما قصدته أنه لم يثر على أيمن، أو على طنط هند كما توقعت. طبعًا، هو لم يوافق على الإطلاق، ولكنه لم يكن...».

كانت ندى تحاول اختيار كلماتها بعناية فائقة، حتى لا أسيء فهمها. تتردّد قليلا، قبل أن تكمل جملتها...

- «لم يكن حازمًا بالشكل الكافي، إن كنت تفهم ما أقصد».

- «وهذا أمر لا يتماشى مع طبيعة شخصيّته؟»

- «بالضبط! هذا بالفعل ما أردت الوصول إليه... كنت أتصور بأنّه سوف يثور، ويغضب لسماعه بأمر علاقة أيمن بطنط هند، ويتوعدهما، ولكن هذا ما لم يحدث... بابا إبراهيم حازم جدًا، وسريع الغضب؛ لذلك تفاجأت بردّة فعله الهادئة... هل تظن.. هل تظن أن هذا من أثر السحر؟»

بماذا أجيبها، والأمر برمّته قد بدأ يأخذ منحى جديدًا كلّيًا؟! أيمن يعشق امرأة في سن والدته، ليست بذات الجمال الّذي يبرر ولهه بها؛ وهند العاصم تقع في غرام ربيب أخيها، متجاوزة مكانتها الاجتماعية، والعلمية المرموقة، وما قد ينتج عن هذا الارتباط من فضيحة تطال سمعتها، وسمعة عائلتها؛ وفي خضم كل هذا، إبراهيم العاصم يأخذ الأمر بهدوء شديد، خلافًا لطبيعة شخصيته.. العلاقة بين هند، وأيمن بدأت منذ عام؛ والحالة المرضية العجيبة الّتي أصابت إبراهيم العاصم، كذلك بدأت أعراضها منذ عام... مستحيل أن تكون هذه مجرد مصادفة عجيبة. أخشى ألا يكون هناك سوى استنتاج واحد، لا مفر منه: ثلاثتهم قد سُحروا!



تنبّهت ندى إلى أمر قد فاتني مع زحمة الأحداث. إن كانت هند العاصم قد سُحرت هي الأخرى، ألا يعني هذا أنّ هناك رسمة لعلامة رابط سحري آخر يخصها هي؟ سؤال وجيه يستحق الإجابة عليه. وقد يخص ذلك الرابط السحري أيمن كذلك، إن كان عشقهما لبعض هو من أعمال السحر. استنتاج منطقي استوحتْه من أحداث رواية «صائد الساحرات»... هذه الفتاة على دراية بتلك الرواية الّتي ألّفتها، تفوق درايتي أنا بها! فعلا، ملاحظتها في محلّها، ولذلك أنا بحاجة لكي أتأكد من هذا الأمر. إن كانت هناك علامة مرسومة لرابط سحري آخر من قبل الشخص ذاته، فعلى الأرجح أنه قد وضعها في مكان مشابه في دار هند. فمعنى هذا أنه عليّ أن أذهب إليها تحت أية حجة، وأن أجد طريقة لدخول مكتبتها الخاصة، إن كانت لديها مكتبة كذلك مثل التي في دار إبراهيم العاصم. ليس هذا فقط، ولكنني بحاجة أيضا لكي أبحث في الأدراج عن تلك الرسمة الملعونة! أمر ليس باليسير، ولكن لا بد منه من أجل التأكد من فرضية ندى... الحق يقال إنّ الفضول بات يملؤني الآن، وأصبح يُحرّكني! أريد أن أصل إلى حقيقة الأمر؛ إن لم يكن من أجل ذلك الرجل المسكين الّذي فتح لي باب قصره، فمن أجل راحة بالي!

***

– «آه... ما هذه المفاجأة الحلوة!»

تستقبلني هند عند مدخل فيلتها، دون أن تبدي أي حزن أو هم لما جرى لأخيها.. ألم يخبرها أحد؟ أم أنها تعلم ولا تبالي؟

– «جئت من أجل الاطمئنان عليك، بعد الذي جرى ليلة البارحة».

– «ما الذي جرى؟»

غريبة.. كأنها لا تعلم.

– «ألم تسمعي بما أصاب الشيخ إبراهيم؟»

– «سمعت بأن وعكة صحيّة قد أصابته».

– «صحيح... إن كنت تودين زيارته الآن، فأستطيع المجيء إليك في وقت آخر».

– «لعلّي أزوره لاحقًا... تفضّل، تفضّل، زارتنا البركة. شرّفت داري».

تجيب عن استفساري ببرود غريب، وكأن هذا الّذي أصابته الوعكة ليس بأخيها، وتأخذني على الفور إلى الصالون، من أجل ضيافتي. برودها هذا تجاه أخيها أراه غريبا، بل مريبًا.. بدأت أقتنع بأنّها بالفعل قد سُحرت!

– «يبدو أن العشاء البارحة كان حافلا بالأحداث، تماما مثل روايات أجاثا كريستي. روائي مثلك مختص في أدب الغموض، حتما قد استلهم الكثير، من أجل أعمال قادمة».



تسألني إن كنت استلهمت من نكبة أخيها فكرة رواية جديدة؟! ماذا تقول؟! أتحسبني إنسانًا ملتفعًا، وخاليًا من المشاعر والأحاسيس، أستغلّ مصائب الآخرين من أجل مصلحتي؟!

– «أظنّ أن الشيخ إبراهيم في حالة حرجة. لعلّك تودين الاطمئنان عليه».

– «صدّقني هو بخير، وستراه غدًا أو بعد غد على الأكثر، يقوم مثل الحصان إلى عمله. هذه ليست أول مرّة يرتفع فيها ضغطه بسبب ناهد الطوخي، وصراخها المزعج!»

ناهد الطوخي.... هذه أول مرّة أسمع فيها اسم عائلة زوجة إبراهيم العاصم.... الطوخي.

لقد علمت هند إذًا بما جرى ليلة البارحة من خلاف بين ناهد، وابنها... أغلب الظن أن أيمن قد أخبرها بما حدث.

– «يبدو أنك لست على وئام كبير مع زوجة أخيك».

– «ليس بالضبط... الحق يقال: إنّها لا تهمني كثيرًا، واختلاطي بها محدود جدًا، على خلاف أخيها نهاد الّذي تربطني به معرفة جيّدة بحكم عمله».

– «نهاد؟»

خرج مني السؤال تلقائيًا، وإن كنت أظن أنّني قد أدركت من تقصد!

- «نعم، نهاد الطوخي، رئيس مجلس أمناء الجائزة الّتي حصلت عليها قبل أيام. حتمًا قابلته في دبي. ألم تكن تعلم بأنه شقيق ناهد؟»

الحق يقال إنّ هناك، على ما يبدو، أشياء كثيرة لا أعلمها عن سكان هذا القصر!

- «لا. لم أكن أعلم قبل الآن».

- «غريبة... لم يذكر لك إبراهيم أن شقيق زوجته هو نهاد الطوخي؟»

- «لعلّه كان يحسبني على دراية بهذا الأمر من خلال تركي الزايدي».

مستحيل أن يكون شخص مثل تركي، مع كل علاقاته المتشعبة، ليس على دراية بهذا الرابط العائلي. معلومة كهذه كان يجب تنبيهي لها، قبل أن أفاجأ بها على هذا النحو السخيف.

- «ربما».

تجيبني وقد رسمت على وجهها ابتسامة لا أعلم مغزاها... لعلّها لا تعني شيئًا....

اللعنة! يجب عليّ أن أركز في المهمّة الّتي جئت من أجلها، فمثل هذا التشتت لا يجدي نفعًا!

نظرت حولي، أتأمل منزل هند، الذي يختلف من الداخل كثيرًا

عن منزل أخيها. هنا الطابع شرقي بامتياز، سواء الأثاث، أو التحف الّتي تزيّن الأرائك، وامتزاجها جميعًا مع السجاجيد الحريرية الّتي أحسبها صنعت في أصفهان بناء على طبيعة ألوانها الزاهية والنقوش الّتي عليها. يبدو لي أن ديكورات منزلها متناغمة تماما مع طبيعة تخصّصها الأكاديمي، وكأنها تعشق كل ما ينتمي إلى الشرق... كأن فيلتها تعكس شخصيتها؛ من الخارج تبدو غربيّة الطابع، ولكن من الداخل شرقيّة بامتياز...

- «أنا جدًا معجب بذوق منزلك الشرقي. أحييك عليه».

- «أشكر لك لطفك. هل حقًا أعجبك؟»

تجيبني دون أن تخفي سعادتها بما قلت.

- «بالطبع أعجبني، وأظنه يعجب أي شخص يراه».

- «هو مختلف تمامًا عن الطابع الأوروبي لمنزل إبراهيم، وحتّى لأغلب البيوت الراقية الّتي دخلتها في الرياض. مع الأسف فالطابع الشرقي لم يعد محبوبًا مثل الأوّل. الناس أصبحت تبحث الآن عن المودرن، فهو الرائج هذه الأيام».

- «أظنّ أنّ كلّ شيء وله جماله؛ ولكن هل تحمل مكتبتك الخاصة الطابع الشرقي ذاته؟»

نظرت إليّ هند بتعجب. يبدو وكأنّها لم تتوقع منّي هذا السؤال.

– «ولماذا تسأل عن مكتبتي على وجه التحديد؟»

تردّ على سؤالي بسؤال لا أعرف كيف أجيب عله! ماذا أقول لها؟ «أنت مسحورة، وأريد أن أبحث عن رسمة لعلامة الرابط السحري في أدراج مكتبتك الخاصة»! حتمًا سوف تحسبني معتوهًا، أو على أقل تقدير قد وقعت أسيرًا لما أكتبه من خيال! أنا نفسي بتّ حائرًا من هذا الذي يحدث على مرآي، ومقربة منّي؛ وكأنّني بتّ بالفعل أعيش أحداث الرواية الّتي كتبتها وأنا غير راض!

– «أصدقك القول، فأنا من عشّاق المكتبات المنزلية الخاصّة. عندما شاهدت مثلا مكتبة الشيخ إبراهيم بهرت. لعلّ هذا ما جعلني مشتاقًا لرؤية مكتبتك، خاصة وأنك أكاديميّة مرموقة في مجال الأدب، والدراسات الشرقية».

– «مع الأسف، مكتبتي سوف تخذل توقعاتك المرتفعة، لذلك لا أفضّل أن تراها».

لا حول ولا قوّة إلا بالله! أردت أن أكحلها، فعميتها!

– «أنا واثق بأنها لن تخذل سقف توقعاتي أبدًا! لماذا لا تتركي الحكم لي؟»

– «المكتبة بها أوراق مبعثرة، وكراتين متناثرة... وضعها مع الأسف الآن، لا يسمح بأيّة زيارة.... عفوًا، نسيت أن أسألك: شايًا، أم قهوة؟»

- «قهوة».

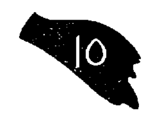
أجيبها وقد أدركت أنّني لن أتمكن من دخول مكتبتها، على الأقل بالطرق الرسمية!

- «بالمناسبة، اللّيلة بعد صلاة العشاء الندوة الثقافية الأسبوعية في منزل الدكتور سعود العازمي. ما رأيك لو تحضرها معي؟ أنت حتمًا تعرف الدكتور سعود، خاصّة وأنّه ترأس لجنة تحكيم الدورة الأخيرة لجائزة الرواية العربية، لفترة قصيرة قبل أن يستقيل. لعلّها فرصة سانحة لكي تستفسر منه عن سبب استقالته».

ندوة ثقافية اللّيلة، سوف تحضرها هلد العاصم... هي بالفعل فرصة سانحة لي، ولكن ليس لأسأل سعود العازمي عن سبب استقالته.

- «لا أظنني سوف أتمكن اللّيلة مع الأسف، فلدي ارتباط هام».

نعم، لدي ارتباط هام مع مكتبتك الخاصّة!



يستقبلني الكلب هيركول بنباح مستمر لا ينقطع، فور دخولي منزل إبراهيم العاصم. لا أدري ما الذي بيني وبين هذا الكلب من عداوة تجعله لا يطيق رؤيتي إلى هذا الحد؟! لعلّه يحسبني منافسًا له على صاحبته ندى. لا أدري، ولكن الخادمة تأتي وتأخذه بعيدًا عنّي، معتذرة لي عن سوء تصرفه مع الأغراب. لا أعلم كم مرّة هو يحتاج فيها لرؤيتي حتّى لا يعتبرني من الأغراب؟!

نزلت ندى من الطابق العلوي، مسرعة نحوي، وكلها شغف لكي تعلم ما الذي جرى في منزل هلد العاصم.

- «مع الأسف لم أتمكن من دخول مكتبتها الخاصّة. حجّتها أنها غير مؤهلة في الوقت الحاضر لاستقبال الضيوف».

ملامح وجه ندى تبدي استغرابًا واضحًا، وهي تردّد ما قلت، وكأنّها تحاول استيعابه..

- «غير مؤهّلة لاستقبال الضيوف؟! ماذا يعني هذا؟»

- «لعلّها في مرحلة إعادة ترتيب للمكتبة، فتشعر بالحرج من أن أراها وهي على حالها من الفوضى.. هذا هو تفسيري لرفضها».



- «أو لعلّها تخشى أن ترى شيئًا لا يجب عليك رؤيته».

- «ماذا تقصدين؟»

- «أقصد مثل الّذي حدث مع شخصيّة لوح في الرّواية».

شخصيّة نوح! يا لها من قارئة ذكيّة تتنبه لكل التفاصيل الصغيرة. أنا نفسي، بالرغم من كوني مؤلف الرواية، قد نسيت ما حدث مع نوح، لمدى صغر مساحة حجم شخصيّته في «صائد الساحرات»!

نوح أصيب بسحر سمّيته سحر الرضوخ. في هذه الحالة، يصبح المسحور هو أكبر مدافع عن الساحر وسحره له.... تخريفة من تخاريفي في هذه الرواية الّتي أخذت تفرض نفسها عليّ في الأيام الأخيرة بشكل لا يصدق!

- «معك حق، وهذا ما فكّرت فيه أنا كذلك».

مبالغة مني، حيث لم يخطر نوح هذا على بالي حتّى ذكرته ندى الآن؛ ولكن يجب عليّ أن أحافظ على سمعتي كصائد للساحرات، طالما أنّي وافقت على المشاركة في هذه المسرحية الواقعية.

- «العقول العظيمة تفكّر بشكل مماثل». قالت لي ندى ممازحة، راسمة على وجهها ابتسامة رضا لتأييدي ملاحظاتها الذكيّة، ثم سألت:



- «ولكن ماذا سنفعل الآن؟ يجب تفتيش مكتبة منزلها».

- «لقد أخبرتني بأنّها تنوي الذهاب الليلة إلى ندوة الدكتور سعود العازمي. معنى ذلك أن منزلها سوف يكون خاليًا.. لعلّ هذه تشكل فرصة، إن وجدت طريقة للتسلّل إلى داخل منزلها».

يا إلهي، ما هذا الذي أقوله؟! هل وصل بي الحال لأن أصبح مُقتَحِمًا للمنازل مثل اللصوص؟!!

- «فكرة رائعة! وأنا لدي الوسيلة الّتي سوف تمكّنك من دخول منزل طنط هند دون أن تعلم».

- «كيف؟»

- «هناء مديرة القصر تحتفظ في مكتبها بنسخ لجميع مفاتيح المنازل الثلاثة. مُرّني الليلة بعدما تخرج طنط هند، أكون قد جلبت لك نسخة عن مفتاح منزلها».

فكرة جيّدة لبساطتها، ولا أظنّها محفوفة بالمخاطر، وإن كنت لست خبيرًا في التسلّل إلى منازل الآخرين. أظنّني وندى بتنا نشكّل فريقًا متجانسًا، بعد أن جمعتنا سويًا نكبة زوج أمّها... بمناسبة أمّها، أمر ما يخطر على بالي.

- «هل حقًا أنّ نهاد الطوخي، رئيس أمناء جائزة الرواية العربية، هو خالك؟»



- «نعم، صحيح، ألم تكن تعلم؟»

- «لا، لم أكن على دراية بهذه المعلومة، حيث لم يذكرها لي أحد من قبل».

- «وكيف عرفت إذًا؟»

سألتني ندى بنبرة لا تخلو من التعجب، وإن كنت أظنّها تشعر بحرج تحاول إخفاءه.

- «أخبرتني هند عندما كنت معها قبل قليل... إذًا خالك هو رئيس مجلس أمناء الجائزة الّتي حصلت عليها قَبل أيام من قِبل لجنة تحكيم والدك هو عضو فيها.. أليس هذا أمر غريب؟»

- «هي بالفعل مصادفة غريبة».

أظنّ أنّ ندى تشعر بعدم الارتياح لهذا الربط بين أهلها، وحصولي على الجائزة. حتمًا هي لا تود أن أحس بأنّي مديون لها ولعائلتها، ولذلك يجب عليّ مساعدتهم في مصابهم الجلل!

جملة قرأتها منذ فترة، فجأة تخطر على بالي، لأجد نفسي أردّدها بصوت مسموع، دون أن أنتبه:

- «الصدفة هي تبرير الجاهل لما لا يفقه».



- «عفوا؟»

يبدو لي أن ندى قد أساءت قصدي من تلك العبارة.

- «المعذرة، هي مجرد جملة كان يكررها منذر القباني كثيرًا في إحدى رواياته، وقد خطرت فجأة على بالي».

- «آه... فهمت. المعذرة، فجلّ قراءاتي هي للروايات العالمية. لعلّ روايتك هي الرواية العربيّة الوحيدة الّتي قرأتها، على الأقل منذ زمن بعيد».

- «هذا شرف كبير، لا أظنّني أستحقّه».

- «إنما الشرف لي أنا».

تبتسم لي بخجل، ثم تكمل..

- «استأذنك الآن. أريد الذهاب إلى حجرة بابا إبراهيم لكي أطمئن عليه. أراك لاحقًا اللّيلة».

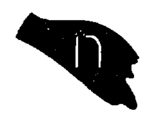
ذهبَتْ بعد مصافحتي بأناملها الدقيقة الدافئة. قشعريرة تنتاب جسدي، وكأنّني أصافح امرأة جميلة لأوّل مرّة! تمنيْت ألا تذهب الآن؛ أن تبقى قليلا، لكي أتحدث معها في أي شيء.. الحق يقال إنني لم أصادف من قبل امرأة في جمال، وذكاء، ولطف ندى؛ لكم أغبط الرجل الذي سوف يستولي على قلبها!

أنظر إلى خطواتها أثناء ابتعادها عنّي، أتساءل كما المراهقين

إن كانت ستلتفت إليّ؟ لا أدري لماذا أتصرّف على هذا النحو، ولكنّني أفعل..

لحظات قليلة، ثم تأتيني الإجابة عن سؤالي الممتلئ بالشغف..

لقد التفتت!



أسأل نفسي، وأنا أدخل منزل هند العاصم خلسة؛ لماذا أفعل ما أفعل؟ هل فعلًا بتّ أومن بأنّ إبراهيم العاصم، وأخته، وربيبه أيمن، جميعهم قد سُحِروا؟! أم أن افتتاني بندى هو ما يدفعني لكي أكون صائد الساحرات؟ هل أرغب في أن أكون ذلك البطل الذي صنعتُه في خيالي، وأحبّتْ هي القراءة عنه، وعن مغامراته؟ أغلب من قرأ الرواية ظنّني أتحدث عن نفسي، وقد زكّى تركي الزايدي هذا التصور الخاطئ عبر آلة الإعلام التي يجيد العزف عليها بمهارة فائقة. أشعر وكأني فقدت نفسي مرّتين: مرّة عندما وافقت على كتابة تلك الرواية، ومرّة أخرى عندما وافقت على أن أصبح أنا بطلها! الغريب أنّني في هذا المساء من فصل الربيع بمدينة الرياض، وفي هذه اللحظة التي أدخل فيها إلى منزل هند، وأتّجه إلى مكتبتها الخاصة دون إذنها، ينتابني شعور لم يصادفني منذ سنوات طوال... ينتابني شعور لذيذ بأنّني فوق الجميع! وبأنّني أستطيع فعل أي شيء، دون أن يهمّني شيء! ضربات قلبي تتسارع من فعل دفعة الأدرينالين المنشّطة، وكل دقّة من هذه الدقات السريعة، تشعرني بأنني حيّ! أظنّني قد بدأت أتصالح مع نفسي... بدأت أتصالح مع صائد الساحرات، ولعلّ الفضل في هذا يعود إلى ربيبة إبراهيم العاصم، ندى.

***



كما توقعت، الدار خالية؛ والخادمة على الأرجح قد خلدت إلى حجرتها على السطوح. أستعين بإضاءة كشّاف جوّالي من أجل تبيان خطواتي عبر أروقة، وأسباب دار هند... الباب الأول فتح على حجرة الطعام. أما الثاني فكان لحجرة مطلّة على الحديقة الخلفيّة. الباب الثالث هو الذي كنت أقصده منذ أن دخلت... أعبُر من خلاله إلى المكتبة الخاصّة..

لماذا مَنَعْتني عنها يا هند؟ ما الذي تخبئينه هنا، ولا ترغبين في اطلاعي عليه؟

دخلت على حذر، وتأملت المكان الّذي يبدو بالفعل من خلال الإضاءة الخافتة الصادرة من كشّاف جوّالي، وكأن عاصفة قد أصابته. إنّه في غاية الفوضى، كما وصفته صاحبة الدار، عندما زرتها في النهار.. كنت أحسبها تكذب عليّ، ولكن على ما يبدو كانت محقّة في عدم رغبتها بأن أرى هذه الفوضى العارمة!

فتشت في أدراج المنضّدة الّتي تتوسط الحجرة عن رسمة لتلك العلامة المشؤومة، كالّتي وجدها إبراهيم العاصم في مكتبة داره...

لا شيء!

فتشت بين أرفف الكتب، وتحت الأريكة.

لا شيء!



بقيتْ منضَدة كبيرة في الزاوية، تعلوها صورة لا أستطيع تبيانها من على بُعد هذه المسافة، بسبب سوء الإضاءة. اقتربت منها، ولم أكد أوجّه لها إضاءة الكشّاف، حتى سمعت صوت باب الدار يُفتح، فاضطررت إلى إغلاق جوالي على الفور، حتّى لا تفضح الإضاءة المنبعثة منه أمري..

اللّعنة! من الذي جاء في هذا الوقت؟!

- «أيمن حبيبي، لقد أقلقتني! ألم نتّفق على أن نخفّف من لقاءاتنا مؤقّتًا حتّى تنزاح هذه الغمّة؟»

هذا صوت هند العاصم.. كان من المفترض ألا تكون هنا الآن!

- «لا أستطيع يا روحي، لا أستطيع! لم أعد أطيق فراقك! هل تعلمين أين بتّ البارحة؟ في البيت القديم!»

أيمن يبدو في حالة غير طبيعيّة على الإطلاق. حديثه حديث عاشق ولهان!

- «أنت مجنون! كيف تبيت في مكان مهجور كهذا؟! ما الذي يدفعك لأن تفعل هذا في نفسك؟!»

- «لأنه البيت الذي ولدتِ فيه يا أغلى شيء في حياتي!»

لا أعلم ما هو ذلك البيت القديم الذي بات فيه أيمن، لكن من ردّة فعل هند، لا يبدو لي مكانًا لطيفًا.

- «حبيبي، أنت بدأت تخيفني. أظنّ أن الضغط الكبير الّذي

تواجهه من أمك، وأختك قد أنهكك. أنت بحاجة للراحة، على الأقل حتى تهدأ الأمور قليلا. عد الآن إلى حجرتك يا روحي، واستلق على سريرك حتى الصباح. خذ قسطا من الراحة... هيا أيمن، لا تكن كالأطفال، من أجل خاطري».

– «ألا أستطيع البقاء معك قليلا؟ فأنا لم أشبع منك بعد!»

شيء غريب فعلا! يستجديها كالأطفال، أو ربما كالشخص المسحور!

– «حياتي أنا لدي ارتباط مهم الآن، ولقد تأخرت عليه».

– «ارتباطك هذا أهم مني؟!»

– «أرجوك أيمن لا تقل هذا! أنت تعلم جيدا أن لا شيء عندي أهم منك، ولكنك في حالة مزرية، وبحاجة للراحة؛ وفي الوقت ذاته أنا قد وعدت الدكتور سعود العازمي بأن أحضر الليلة ندوته.. هيا يا روح قلبي. هانت، خلاص، وعما قريب سنتزوج، ونقضي باقي حياتنا وجهنا في وجه بعض حتى تمل مني».

– «أنا لن أمل منك أبدا! أبدا!»

صمت للحظات، أظنهما يتعانقان، وربما أشياء أخرى، ثم سمعت صوت باب الفيلا وأغلق.. لعلهما غادرا... انتظرت قليلا قبل أن أفتح باب المكتبة من أجل التأكد من خلو الدار من هند، وأيمن....



بالفعل لا أحد؛ لقد غادرا...

اعتزمت الخروج من الدار أنا الآخر، ولكنّني تذكرت تلك المنضدة الّتي لم أفتشها بعد... وعدت مرّة أخرى إليها، ثم أضأت كشّاف الجوّال عليها. لأبحث في الأدراج، ولكنني لم أجد شيئا... تبًا أين هي رسمة علامة الرابط السحري؟! لا أود التفتيش في حجرة نوم هند، لكن لا يبدو أن هناك حلًا آخر! اعتزمت الخروج من المكتبة، لكن الصورة الّتي فوق المنضدة استوقفتني. هي صورة قديمة لهند يوم تخرّجها أمام جامعة السوربون الفرنسية، وعلى جانبيها رجل وامرأة أحسبهما والديها. لا وجود لأخيها إبراهيم في الصورة. لعلّ هذا يعكس مدى فتور العلاقة بينهما... اعتزمت ترك الصورة من أجل الذهاب إلى الطابق العلوي، ولكنّني عدت كي أنظر إليها...

شيء حول عنقها يبدو لي... يبدو لي مألوفا!

يا إلهي! إنّها قلادة مكوّنة من ثلاثة أحرف غير عربيّة! تعرّفت فيها على الحرف الأخير... حرف الدال!



ذهبت مسرعًا إلى دار إبراهيم العاصم حتّى أخبر ندى بما اكتشفته. إن صدق حدسي، فقواعد اللّعبة قد تغيرت تمامًا، ممّا يستوجب علينا النظر إلى الأمر نظرة مختلفة! لا أعلم كيف أنزل عليها الخبر، وإن كنت أحسب أنّ المصارحة المباشرة في مثل هذه الأمور هي خير وسيلة، في ظلّ هذه الظروف الطارئة!

رأيت الصالون مضاءً من الخارج، أرجو أن تكون هذه ندى من في الداخل. اقتربت من الباب الزجاجي، فرأيت من خلال الستارة هيئة امرأة تحمل كُتبها، وتتحدث مع رجل ما.. هي في الغالب ندى، وإن كنت لا أعلم مع من تتحدث. تردّدت قليلًا في الطرق على الباب الزجاجي، ولكنّها تنبهت لوجودي في الخارج، وعلى الفور تقدمت نحوي، ثم فتحت الباب... هي بالفعل ندى، ومعها هيركول الّذي ما إن يراني حتّى يبدأ في النباح، وكأنّني عدوه اللدود! لا أعلم ما الذي فعلته لهذا الكلب حتّى يكرهني إلى هذا الحد!

- «تفضّل، تفضّل.. انظر من معنا!»

- «أين كنت يا رجل؟ سألت عنك ندى، فقالت لي بأنّك خرجت من أجل قضاء بعض الأمور الخاصّة».

تركي الزايدي يبادر لمصافحتي بحماس كبير... مفاجأة لم أكن أتوقعها. لا أدري لماذا لم يخبرلي بأنّه قادم إلى الرياض؟

- «كيف حالك يا تركي؟ ملذ متى وأنت في الرياض؟»

- «قدمت للتوّ، فور سماعي بخبر وعكة الشيخ إبراهيم؛ لكن قل لي، هل أنت مرتبط اللّيلة؟»

- «لا».

- «ممتاز، إذًا انتظرني دقائق حتّى أعود من حجرة الشيخ إبراهيم».

- «هل سمح الطبيب بالزيارة؟»

خرج مني السؤال بشكل عفوي... فهل معنى السماح بالزيارة أن حالته قد بدأت تتحسن؟

- «لا مع الأسف، لم يسمح بعد، ولكن بابا إبراهيم يصرّ على رؤية الأستاذ تركي».

تردّ ندى على سؤالي، وكأنّها غير راضية عن زيارة تركي هذا لزوج أمها.

- «على العموم، أنا لن أطيل عليه». يجيب تركي على ندى، وكأنّه استشعر قلقها، ثم التفت إليّ وقال:

- «انتظرني، ولا تذهب. سآخذك إلى مطعم لطيف، ليس ببعيد؛ فهناك بعض الأمور الهامّة الّتي أود الحديث فيها معك».



غادر تركي الصالون، ونادت ندى على الخادمة لكي تأخذ هيركول الذي لا يزال يبدو متوترًا من وجودي في المكان ذاته الذي هو فيه! وما إن غادرا، حتّى بادرت على الفور بسؤالي، وكلّها شغف:

- «هيّا أخبرني، هل وجدت الرسمة؟!»

- «لا، ولكنني وجدت شيئًا آخر، قد لا يقل أهمية».

ناولتها جوالي بعد أن فتحت ملف الصورة الّتي التقطتها قبل قليل في منزل هند العاصم.

- «هذه صورة طنط هند عندما تخرجت من السوربون... ما بها؟»

كبّرت لها الجانب الذي توجد فيه القلادة.

- «ركّزي جيّدًا... ما الذي ترينه هنا؟»

- «تقصد السلسلة؟ مهلا، أنت لا تقصد... لا، لا، لقد ذهب عقلك بعيدا!»

- «أحرف آرامية، مثل تلك المرسومة في الرابط السحري! هذه ليست صدفة يا ندى!»

- «هذه السلسلة تحمل معزّة خاصة لدى طنط هند. اشتراها لها والدها من سوريا عندما كانت طفلة صغيرة، ومن وقتها وهي تحتفظ بها. الأحرف هي مجرد أحرف لاسمها!



الأمر لا علاقة له بأي سحر.. طنط هند؟! كيف تفكر في أمر كهذا؟! مستحيل!!»

لقد فهمَتْ قصدي، وهذا ما كنت أرجوه.. كل شيء الآن قد بدأ ينكشف. من الذي لديه مصلحة في إيذاء الشيخ إبراهيم؟ الرجل ليس لديه ابن يرثه. إن مات، فسوف تتوزع ثروته ما بين زوجته، وأخته.. من الذي كانت لديه الفرصة لكي يرسم تلك العلامة في درج مكتبته؟ أخته هند بلا شك كانت لديها الفرصة! من لديه المعرفة في الأحرف الآرامية الّتي كتبت في الرسمة بين أضلاع النجمة الخماسية؟ هند! كما أن الّذي سمعته في منزلها من حديث دار بينها وبين أيمن، والحالة الّتي كان عليها المسكين من اضطراب عجيب، على خلاف الهدوء الّتي كانت تتحلّى هي به، كل هذا إن كان يوحي بشيء، فهو يوحي بأن أيمن فقط هو المسحور بجانب إبراهيم العاصم!

- «لا بد وأن نتقبل جميع الاحتمالات. أعلم جيّدًا بأن المسألة حسّاسة إلى أبعد الحدود، ولكن علينا ألا ندفن رؤوسنا في التراب مثل النعام، ونغضّ الطرف عن الدلائل، فقط لأنّها لا تروق لنا».

- «ولكنّك تبني رأيك العجيب هذا بناء على سلسلة أهديَت إليها! أنا أعرف طنط هند جيّدًا، ومن المستحيل أن تفعل شيئًا كهذا! لا، أرجوك ابحث عن شخص آخر غير طنط هند!»

- «اللّغة الآرامية لغة شبه مندثرة. بالله عليك، كم من شخص تتصورين في الرياض على دراية بمثل هذه اللغة وأحرفها، ناهيك عن محيط الشيخ إبراهيم؟! ومع ذلك أنا لن أكتفي فقط بهذه الأدلة. سوف أقوم بالمزيد من البحث من أجل التوصل إلى الحقيقة... هناك أمر آخر أردت سؤالك عنه. وأنا في منزل هند، أبحث في مكتبتها، جاءت ومعها أيمن».

- «وهل علمتْ بوجودك؟!»

سؤال ندى لا يخلو من القلق، وإن كانت الإجابة عليه بديهيّة. فلو افتضح أمري لما كنت هنا معها الآن.

- «بالطبع لا، لا تقلقي... سمعت أيمن يقول لها بأنّه بات ليلة أمس في منزل قديم وَلَذتْ فيه».

- «يا إلهي يا أيمن! لمَ تفعل بنفسك هكذا؟!»

جلست ندى على الأريكة واضعة رأسها بين كفّيها. أظنني أثقلت عليها بالأخبار السيّئة، وإن كنت لا أعلم ما خطب هذا المنزل القديم الّذي على ما يبدو ليس بالمكان الذي كان يجب أن يبيت فيه شخص كأيمن.

- «هذا بيت قديم جدّا، ومهجور في جنوب الرياض. هو ضمن أملاك طنط هند هناك».

أجابتني بعد أن هدأت قليلا. لقد أظهرت لي ضعفًا ما أحسبها



كانت تودّ أن يبان أمامي، ولكنّها في نهاية المطاف إنسانة، وليست آلة. وددت أن أقول لها: إن ضعفها هذا يزيدها في نظري جمالا، ولا ينتقص منها قيد أنملة، ولكن ليس هذا أوانه الآن...

- «قلتِ لي أن هذا البيت هو ضمن أملاكها هناك.. ماذا تقصدين؟»

فجأة خطر أمر على بالي، أود التأكد منه.

- «طنط هند ورثت في جنوب الرياض أرضا مساحتها كبيرة، فيها بيوت قديمة لا يسكنها أحد الآن سوى ربّما تجّار المخدرات، والمجرمين. المنطقة جدًا خطرة».

- «هل هو المكان ذاته الّذي أخذني إليه السائق، وأنا في طريقي من المطار، عندما أصابته تلك الحالة العجيبة؟»

صمتت ندى، وكأنّها تتأمل سؤالي... ثم نظرت إليّ بعينين لا تخلوان من الريبة والحذر.. أظنّها فهمت غرضي من هذا السؤال... وحتمًا فهمت قصدي، فقد أوردتُ ما هو شبيهًا له في روايتي؛ وبما أن هذه الرواية قد أصبحت هي المرجع لها في مثل هذه الأمور المتعلّقة بالسحر، فحتمًا قد ربطتْ بين الأمرَين.

- «لستُ على يقين، ولكنّني سوف أتأكد من الأمر، وأخبرك».

صوت أقدام تقترب من خارج الصالون...

يبدو أن تركي قادم.

- «رجاء لا تخبر أي أحد عن شكوكك هذه… على الأقل حتى نتأكد».

طلبت مني ذلك همسًا قبل أن يقترب تركي منّا، بعد أن ولج توًا إلى الصالون.

- «حاضر».

طمأنتها، ثم وجّهت سؤالا لتركي…

- «ها، كيف وجدت الشيخ إبراهيم؟»

- «قوّمه الله بالسلامة… هذا الرجل الطيّب الكريم لا يستحق إلا كل خير».

يقولها بنبرة لا تخلو من التأثر، وإن كان يحاول التظاهر بالتماسك. يبدو أن حالة الرجل لا تسر. ليتني أستطيع الذهاب أنا الآخر من أجل السلام عليه، والاطمئنان على حاله، ولكنني أتفهم عدم رغبة أهله في فتح المجال للزيارة، من أجل راحته. لعلّ تركي هو الاستثناء الوحيد بحكم المعرفة القديمة، أو شيء من هذا القبيل.

- «صدقت»، أجيبه.

اكتفت ندى بهزّة رأس، وإن كنت أرى الدموع تكاد تملأ جفونها. أظن أن الوقت قد أزف لكي نغادر أنا، وتركي المكان، ونتركه لأهله؛ كما أنني بحاجة لكي أتأكد من أمر ما قد يخفي

المزيد من الضوء على هذا اللّغز الغامض الّذي وجدت نفسي فيه!

***

- «هل توصّلتَ إلى شيء؟»

سألني تركي بعد أن ركبنا سيّارته. الشغف بمعرفة ما حدث يبدو عليه واضحًا.

- «قبل أن أجيب عن سؤالك، أريدك أولا أن تتجه إلى منزل الدكتور سعود العازمي».

- «سعود العازمي؟ لمَ تريد الذهاب إليه؟»

- «في منزله ندوة أسبوعية أود الذهاب إليها».

- «أتمزح أنت؟! أيّة ندوة هذه الّتي تود الذهاب إليها الآن، ونحن في وسط هذه المعمعة؟! الرجل حالته في غاية السوء. أليس من المفترض أنّ أثر السحر قد زال بعدما أتلفت تلك الرسمة؟»

- «وما الذي يدريلي ما هو المفترض أن يكون؟! ماذا دهاك يا تركي، كذبت الكذبة، وصدقتها؟! أم أنك بتّ تعتقد أنني بالفعل صائد الساحرات؟!!»

لا أدري لماذا انفجرت هكذا في الرجل؟ ولكنّني شعرت بارتياح



بعدما أفرغت ما في جوفي من حلق شديدا الحق يقال، إنّي لم أعد أدرك إن كان غضبي هذا ناتجًا عن عدم رغبة بالاستمرار في هذه المسرحيّة العجيبة، أم لشعوري بالعجز لأنّني لست بالفعل صائدا للساحرات!

– «على رسلك، فأنا لست الخصم هنا يا صديقي».

– «أنا آسف يا تركي. لم أقصد الانفجار فيك هكذا... أنا آسف».

– «لا عليك. أدرك جيّدا مدى الضغط الّذي أنت فيه، والأمور تسير على هذا النحو السيّئ. لكنّ الشيخ إبراهيم هو بحاجة إليك الآن أكثر من أي وقت مضى. الرجل بين الحياة، والموت، لذلك أسألك مرّة أخرى، هل توصّلت إلى شيء؟»

وددت أن أخبرك يا تركي عن شكوكي حول هند العاصم، ولكنّني وعدت ندى... سامحني.

– «مازلت أبحث في الأمر، وذهابي إلى ندوة سعود العازمي سوف يساعدني كثيرًا في البحث».

– «كيف؟»

– «ليس الآن يا تركي، ولكنّي أعدك بأنّك سوف تعلم كل شيء في الوقت المناسب. لا تستبق الأحداث، وخذني الآن إلى هناك، رجاء».



لا أدري إن كان كلامي هذا قد أقنع تركي أم لا، ولكنني لا أستطيع البوح بأكثر من هذا في الوقت الراهن.

- «حسنًا يا صديقي.. كما تريد؛ فلنذهب إلى منزل الدكتور سعود العازمي».



لم تكن حفاوة الاستقبال كما توقعتها... شتّان ما بين منزل الدكتور سعود العازمي، وقصر إبراهيم العاصم. وأنا لا أتحدث هنا عن الفارق في المساحة، والفخامة، والجمال، إنما فيما هو أهم من ذلك بكثير عندي؛ الترحاب بوجودي. لا أدري لماذا ينتابني شعور بأن المتواجدين هنا غير راضين عن وجودي معهم، مع أنني حققت ما لم يحقّقه أي أديب سعودي قبلي: الفوز بجائزة الرواية العربية! كنت أتوقع أن أقابل مقابلة الفاتحين، والكل يجري نحوي من أجل تهنئتي، ولكن هذا الفتور العجيب الذي قوبلت به، يكاد يكون مريبًا! مع العلم أن سعود العازمي، صاحب الدار التي تقام بها الندوة الثقافية، كان رئيسًا للجنة التحكيم الّتي منحتني الجائزة؛ أو بمعنى أصح لكي أكون أكثر دقة، ظلّ رئيسًا لها حتّى الإعلان عن القائمة القصيرة. لعلّها فرصة لكي أسأله، إن تمكّنت من الانفراد به، عن سبب استقالته من اللجنة أثناء بحثها في اختيار الفائز النهائي للجائزة. هل يا ترى هؤلاء المثقفون يحسبونه استقال اعتراضًا على منحي الجائزة؟! أهذا هو سبب الفتور الّذي ألاقيه؟! لا أستبعد شيئًا من هؤلاء، فلعلّ نجاحي يذكّرهم بفشلهم! وإن كنت أوافقهم إن رأوا أن رواية «صائد الساحرات» ليست هي الأجدر بالفوز بمثل هذه الجائزة...

- «لا تلتفت لأنصاف المثقفين هؤلاء.. لو أنّهم يبذلون الجهد ذاته الّذي يبذلونه في الحقد، والتشنيع على الآخرين، ولكن في إنتاج عمل أدبيّ متميّز مثل روايتك، لنالوا حظك من النجاح والشهرة. هم فاشلون، ويحقدون على كل ناجح يذكّرهم بفشلهم الذريع!»

تركي يحاول التخفيف عليّ بعدما لاحظ هو الآخر الفتور الذي قوبلتُ به، حتّى من قبل صاحب الدار الذي من الواضح أنّه فوجئ بمجيئي. لعلّ أكثر شخص سعد لرؤيتي هي هند العاصم.. بدأت أشك أن سرّ اهتمامها بي هو موضوع الرواية، وليس الأسلوب الأدبي الذي استخدمته في كتابتها... هذه المرأة باتت تحيّرني، فما عدت أعلم إن كانت صادقة في مشاعرها الطيّبة نحوي، أم أنّها تريد خداعي من أجل غرض في نفسها أكاد ألمسه!

- «سعيدة لوجودك هنا، فهذه الندوة كانت بأمس الحاجة لدماء جديدة تضفي عليها وهجًا».

- «هكذا يا دكتورة هند؟! نحن لم نعد نروق لك؟!» جاء اعتراض سعود العازمي سريعًا، ومباشرًا، وإن حاول تخفيف أثره بلمحة مزاح.

- «أنت تعلم رأيي جيّدًا يا دكتور سعود. الأدب العربي على وجه العموم، والسعودي على وجه الخصوص، كان بحاجة ماسة للخروج من الرتابة الّتي أصبح عليها».

- «وفي ظنّك أن رواية صائد الساحرات هي التي سوف تخرج الأدب العربي من رتابته؟»

كأن في سؤال سعود العارمي هذا شيئًا من الاستهجان... هكذا ما شعرته من نبرة السؤال، ونظرته المريبة لي، ولتركي!

- «ولمَ لا؟ أولم ترأس أنت اللّجنة ذاتها الّتي ميّزتها عن باقي الروايات؟ ولو أنّك استقلت قبل الإعلان عن الفائز النهائي... بالمناسبة يا دكتور سعود، لماذا استقلت على ذلك النحو المفاجئ؟»

يبدو أن سؤال هند هذا لم يربك فقط الدكتور سعود، ولكن حتّى تركي؛ فملامح وجهه تبدّلت، وكأنه فجأة شعر بعدم ...رل... من مسار الحديث... شيء غريب...

- «ظروف خاصة... مسألة شخصيّة ليس هذا هو مجال الحديث عنها»

إجابة سعود العارمي عن سؤال هند العاصم كانت متلعثمة... من الواضح أنه تفاجأ من توقيت السؤال، ول... ال...سؤال ذاته، أنا على ثقة بأنّه قد سُئل عن الأمر ذاته مرّات عديدة من قبل. لكنّ أكثر ما لفت انتباهي، هي تلك النظرة الّتي اختلسها للتركي، ثم سرعان ما حاول إخفاءها... كأن لتركي يدا في استقالته... لقد أثار فضولي... أصبحت لدي مهمتان اللّيلة!

استأذن الدكتور سعود منا لكي يباشر باقي ضيوفه... وإن كنت أحسب أن لانصرافه عنّا سببًا آخر. نظر تركي إلى ساعته، ثم سألني إن كنت أود الانصراف، خاصة وأن الندوة ذاتها قد انتهت. بحثت مع نفسي، على عجل، عن حجّة أقولها له لكي أبرر رغبتي في البقاء، حتّى أنفرد مع سعود العازمي، لكي أسأله عمّا يجول في خاطري، فسرعان ما أتى الحل عن طريق هند، لتلقذني من عناء البحث:

– «لست بحاجة لكي توصله أنت يا أستاذ تركي، باستطاعته أن يعود معي، فنحن ذاهبان إلى المكان ذاته، أم أنك نسيت؟»

– «بالفعل، لا داعي لانتظاري يا تركي».

– «أأنت متأكد؟ أستطيع البقاء إن أردت».

– «كما قالت لك الدكتورة هند، طريقي وطريقها واحد. ولا داعي لبقائك هنا فقط من أجلي، خاصة إن كانت لديك مشاغل أخرى كما هي العادة».

هزة رأسٍ متـ...دة صدرت عن تركي، ثم أتت المصافحة قبل المغادرة. لا أدري ما الذي يدور في خاطره الآن، ولكنّني لاحقًا سوف أخبره بكل شيء، بعدما أتأكد.

***

لا أدري إن كان سعود العازمي يتفاداني عن قصد، أم أنه فقط مشغول مع باقي ضيوفه. حدسي يميل نحو الخيار الأول. أشعر وكأنّ لديه سرًا لا يود الإفصاح عنه، لذلك لن أغادر الليلة منزله قبل أن أتحدث معه على انفراد! الطريقة الّتي تساءل بها إن كانت رواية «صائد الساحرات» هي الّتي سوف تخرج الأدب العربي من رتابته، تعليقًا على ما قالته هند العاصم، تنم عن عدم احترام؛ هذا ما شعرت به... إن كان هذا هو شعوره نحو الرواية، فلماذا إذًا ساهم في إيصالها إلى القائمة القصيرة قبل أن يستقيل؟! لن أستطيع المضي قدمًا في البحث حول ما أصاب إبراهيم العاصم، وبالي مشغول فيما هو أهم بالنسبة لي: ما دار خلف كواليس الجائزة، وساهم في فوز روايتي بها!

عيناي على سعود العازمي طيلة الوقت. أنتظر فرصة سانحة لكي أنفرد به - صاحب الدكتور سعود أحد ضيوفه المهمّين إلى الخارج، لكي يودّعه - هو ناقد ثقافي أكاديمي معروف، لم تلاقِ كتبه رواجًا كافيًا، فأخذ يكرّس جل وقته في مواقع التواصل الاجتماعي لكي يعوّض فيها شيئًا من فشله -

لحقت بسعود العازمي إلى الخارج، وانفردت به في ساحة حديقة داره، قبل أن يعود إلى الداخل...

- «أتسمح لي أن آخذ من وقتك خمس دقائق؟»

لقد فاجأته - لم يتوقع محاصرتي له على هذا النحو... ما الذي يخبّئه، ويخشى أن يبوح به لي؟

- «طبعًا، بكل ترحاب.. أتحب أن ندخل البيت؟»

- «الجو جميل.. لماذا لا نتحدث هنا في الحديقة على راحتنا؟»

- «كما تحب».

نبرة صوته تفضح قلقه!

- «الّذي أعرفه عنك أنك رجل صريح، وصاحب مبدأ، ولا تخشى في قول الحق لومة لائم».

الحقّ يقال إنني لا أعلم عنه سوى القليل، ولكنّني أجد أن بعض الثناء في مثل هذه المواقف قد يهدم الكثير من الحواجز.

- «العفو، هذا من طيب أصلك الكريم».

- «ما الذي حدث في كواليس الجائزة؟»

سؤال مباشر، أظنّه كان يتوقعه مني، ومع ذلك أراه يتردّد قبل أن يجيبني، وكأنّه لا يزال يفكر كيف ينبغي أن تكون الإجابة.

- «لقد فزتَ بالجائزة وانتهى الأمر.. لماذا البحث في أمور لا جدوى منها الآن؟»

- «الفضول... إنه الفضول، لا أكثر؛ وثق بأنّني سوف أتقبل منك أي شيء تقوله، مهما كان».

- «سوف أجيبك عن سؤالك، ولكن بعد أن تجيبني أنت أولا عن سؤالي.. هل أنت راضٍ عن فوزك بالجائزة؟»

سؤال ملغم لم أتوقعه! ولكن في سبيل الحصول منه على إجابة عن سؤالي، سوف أجيبه، وبصراحة تامّة...



- «أصدقك القول إنّني تمنيت في بادئ الأمر ألا أفوز بالجائزة.. كنت أحسب نفسي أكبر من هذه الرواية البوليسية الّتي تتحدث عن السحر والسحرة، ولكن، لسبب ما، هذا الشعور قد بدأ يتلاشى في الآونة الأخيرة... هذه إجابتي عن سؤالك، والآن جاء دورك».
- «أحيّيك على صراحتك.. وأنا كذلك شعرت بأن الرواية لا تستحق الفوز، وإن كنت لا أرى مانعًا من وصولها إلى القائمة الطويلة، وربما الصغيرة، خاصة وأن بعض أعضاء اللّجنة كانوا في غاية الحماس لها... لكن أن تفوز بالجائزة النهائية، فهذا ما لم أتقبّله أبدًا. أرجو ألا تأخذ هذا على محمل شخصي، ولكنك طلبت مني أن أكون صريحًا معك... رواية صائد الساحرات استطاعت أن تبيع كمًا من النسخ لم يشهد له العالم العربي من مثيل، فهل يجب عليها كذلك أن تفوز بأهم جائزة أدبية على مستوى العالم العربي، وهي، كما وصفتها أنت، مجرّد رواية بوليسية؟! أين العدل في هذا؟! طبعًا رأيي هذا لم يعجب بعض أعضاء لجنة التحكيم، فوصل الأمر إلى نهاد الطوخي، بصفته رئيسًا لمجلس أمناء الجائزة».

أظنّ أنّ الفيض الذي كان في جعبة سعود العازمي بعد أن خرج، قد جعله يشعر بالارتياح، إلى درجة أنّه لم يعد متحفّظًا في الحديث عن الأمر.

- «وماذا حدث بعد ذلك؟»

- «طلب منّي أن أستقيل من لجنة التحكيم، ففعلت».

استقال لأنه استكثر على رواية بوليسية أن تحظى بنجاح جماهيري كبير، ونجاح أدبي! تمنيت لو أنّه كان هناك سبب آخر.

- «ومن الذي كان أكثر المتحمسين للرواية من لجنة التحكيم؟»

- «حسين عوض بلا جدال».

حسين عوض، والد ندى، وأيمن... لعلّي أشكره لاحقًا، إذا التقيته، على ذلك الحماس الكبير... لكن هل يا ترى هو كذلك الّذي أقنع ابنته بقراءة روايتي، أم أن حماسه الكبير لها أثار فضولها، فقرأتها؟

- «أشكرك يا دكتور سعود، وأقدّر لك صراحتك معي، ولكن لدي سؤال أخير، بعد إذنك».

- «تفضّل».

- «هل سبق لك، وأن قرأت أيًا من رواياتي السابقة؟»

- «أأنت لك روايات أخرى غير صائد الساحرات؟!»

مع الأسف، سؤاله الّذي لا يخلو من الدهشة كان كفيلًا بالإجابة عن سؤالي... العجيب في الأمر أن هذا ما كنتُ أتوقعه، وما لم يدهشني.

***



من حي الروضة، نتّجه غربًا عبر شوارع الرياض إلى حي حطّين. هند العاصم تقود، وأنا جالس بجوارها. أظنّها المرّة الأول التي أركب فيها سيارة في السعودية تقودها امرأة؛ بل حتمًا هي أول مرّة... عندما عرضت عليّ العودة معها إلى القصر، حسبتها تقصد في سيارة مع السائق؛ لا أدري لماذا لم يخطر على بالي أن تكون هي من تقود السيارة؟

اختلائي بها على هذا النحو، يجعلني راغبًا في جسّ نبضها. هي فرصة سانحة لي كي أتأكد من بعض شكوكي، ولكن عليّ أن أحذو بحذر، لكيلا يفتضح أمري، وينكشف سبب تواجدي.

- «أخبرني الدكتور سعود بأنك انفردت به في حديقة منزله، وسألته عن سبب استقالته من لجنة تحكيم الجائزة».

بادرت هند حديثها بنبرة لا تخلو من المرح...

- «صحيح.. أنت كنت على دراية بسبب استقالته، أليس كذلك؟»

- «نعم لقد أخبرني، وكنت حريصة على أن تسمع أنت منه مباشرة رأيه في روايتك، لا لشيء إلا لكي تدرك أن مثل هؤلاء من الأكاديميّين لا يزاولون يفكرون بعقلية قديمة عاف عليها الزمن. هم الماضي، وفي رأيي المتواضع أنت وأمثالك المستقبل، إن أردنا نهضة ثقافيّة حقيقية في العالم العربي تكون مواكبة للعصر».

كلام هذه المرأة جميل، ويغريني، بل يكاد يكون وقعه عليّ كالسحر الكم أتمنى أن يكون شكّي فيها غير صائب.

- «أنت أكاديمية، وفي الجامعة ذاتها الّتي يعمل فيها الدكتور سعود، ومع ذلك لا تفكرين مثله».

- «أكاديمية على اتصال وثيق بالواقع، بعد أن هبطت من برجها العاجي الذي كانت تعتليه».

يا ترى أي واقع هذا الذي هي على اتصال وثيق به؟ لا أدري إن كنت واهمًا، أم أن جملتها هذه تحمل أكثر من معنى؟!

- «لعلّ دراستك في جامعة السوربون العريقة هي الّتي جعلتك تنظرين إلى الرواية بنظرة مختلفة عن السائد هنا».

التفتت هند إليّ... ورمقتني بنظرة، وابتسامة، ثم قالت:

- «يبدو أنّك على دراية جيّدة بسجلي الأكاديمي.. كأنّك سألت عنّي، أو فتّشت عن الجامعة الّتي درست فيها».

تعليقها هذا يثير فيّ الريبة... كأنّها تلمح أنّي أفتش حولها؟! أم لعلّي أحمّل حديثها أكثر مما يحتمل..

- «أنت أكاديمية مرموقة، وسجلّك الأكاديمي معروف، لا يتطلب البحث».

- «هذا من لطفك».

- «بمناسبة السوربون، كنت قد قرأت أن من ضمن متطلباتها

في مجال الدراسات الشرقية، تعلّم لغة قديمة... هل هذا صحيح؟»

التفاتة سريعة نحوي، وإن كانت هذه المرّة لا تحمل معها ابتسامة...

- «نعم صحيح. هو متطلب عام».

- «ويا ترى ما هي اللّغة القديمة الّتي تعلمتها؟»

- «اللّغة الآرامية».

أجابتني بشكل مباشر ودون أدنى تردّد، وكأن في إجابتها هذه شيئًا من التحدي! إما أنها لا تشك نهائيا في الغرض من سؤالي، أو أنها تشك، ولم يعد يهمها!!

- «ولماذا الآرامية على وجه التحديد؟ أليست هذه اللّغة شبه مندثرة؟ لا أحسب أن لها إرثًا ثقافيًا عميقًا».

- «ليست مندثرة على الإطلاق، وما تزال هناك مجتمعات في غرب سوريا، وشمال العراق تتحدث إلى الآن الآرامية. كما أنّ لهذه اللّغة القديمة إرثًا ثقافيًا كبيرًا، فهي اللّغة الّتي كان يتحدث بها المسيح. كما أنّ العديد من اللّغويين يعتبرونها أصل العديد من اللّغات السامية مثل العربية، والعبرية؛ وأن بعض الدراسات اللغوية الحديثة، ترجح أن الحروف المتقطعة الموجودة في بدايات العديد من سور القرآن، هي كلمات آرامية».

– «من الواضح أن لديك شغفاً كبيرا بهذه اللّغة».

لكن هل يا ترى يمتد هذا الشغف إلى دروب السحر؟! لا أدري لماذا لم تذكر السحر من ضمن مآثر اللغة الآرامية، بالرغم من وجود تلك الصلة العميقة بينهما؟ ألغرض إبعاد أية شبهة عنها؟!

– «هذا صحيح، فلي معها ذكرى خاصة، وعزيزة... عندما كنت طفلة صغيرة، مرضت، ودخلت المستشفى. كان أبي وقتها في سوريا في رحلة عمل. عندما سمع بالخبر، قطع رحلته وجاءني على الفور، وجلب لي معه قلادة مكتوبا عليها اسمي بالأحرف الآرامية. أذكر جيّدا إلى الآن تلك اللحظات عندما وضعها حول عنقي، ثم ضمني إلى صدره وقال إنها سوف تجلب لك دوماً الحظ السعيد. لا أذكر أنّني أزحتها قط من حول عنقي؛ ليس من أجل الحظ السعيد، ولكن من أجل تلك الذكرى السعيدة، الّتي بيّنت لي كم كان أبي يحبني».

قلبي يتعاطف معها، وعقلي يخشاها، فما عدت أعلم من أيهما الأصدق، والأقرب إلى الحقيقة؟! شيء مُحيّر، لكن في مثل هذه الأحوال، لا بد من إزاحة العاطفة جانبًا، إن أراد الباحث أن يتوصل إلى الحقيقة.. كأنّني قرأت هذه الجملة في مكان، وإن كنت لا أذكر أين...

– «وماذا عن السحر؟»



سؤال مباشر لا أظنها توقعته.

- «السحر؟ لا أفهم سؤالك».

- «عندما كنت أحضر لرواية صائد الساحرات، تبين لي أن هناك صلة وثيقة بين الآرامية والسحر».

تأملت هند كلامي قليلا قبل أن تجيب، وكأنها تبحث عن الكلمات المناسبة التي تتفوه بها..

- «السحر كان منتشرًا في جميع بقاع العالم القديم، ولك في مصر أكبر مثال؛ وكما تحدثنا في أول لقاء بيننا، الفارق بين السحر، والعلم في تلك الأحقاب التاريخية كان ضئيلا للغاية. لذلك لا أرى أن الآرامية تتميز عن أية لغة قديمة أخرى في مجال السحر، وإن كان البعض يعتقد ذلك خطأ».

يا ترى هل هذه محاولة جديدة منها من أجل إبعاد شبهة السحر عنها؟ ممّا لم أعد أشك فيه، أن هند العاصم امرأة في غاية الذكاء، ولا أستبعد تماما أن تكون قد استنتجت السبب الحقيقي من وراء دعوة أخيها لي، إن كانت هي من رسمت علامة الرابط السحري في درج منضّدة المكتبة.. نبرة صوتها لا تزال هادئة، ولا يوجد فيها أي أثر للريبة من سؤالي حول علاقة الآرامية بالسحر. لعلّي أدير دفّة الحوار إلى مسار آخر ليس ببعيد، قد أجد من خلاله دلالات لا تقل أهمية عن اللّغة الآرامية، وعلاقتها بالسحر.

- «تصوري أنني كنت أتحدث اليوم مع ندى، وأخبرتني أنّها لا تحب قراءة الروايات العربيّة، ولكن رواية صائد الساحرات هي الاستثناء الوحيد».

تبسمت هند لما قلته، وكأنّها كانت على دراية مسبقة من ذلك الأمر قبل أن أخبرها.

- «ندى منذ صغرها وهي تعشق الروايات العالمية، وخاصّة البوليسية منها؛ وكما قلت لك سابقا، لا أظن أن هناك رواية لأجاثا كريستي لم تقرأها؛ ولأن الأدب العربي ليس قويًا في الأعمال البوليسيّة فهو لم يستهوها، ولكن طبعًا كل ذلك تبدل بعد روايتك الأخيرة».

- «من الواضح أن علاقتك بندى جيّدة».

نظرت إليّ هند باستغراب... لعلّها بدأت تدرك بفطنتها المسار الذي أخذ يتجه نحوه الحديث.

- «لا يوجد بيني، وبينها إلا كل ود واحترام... على ما أظن».

على ما تظن؟ ماذا تقصد بهذه العبارة يا ترى؟

- «ماذا عن أيمن؟»

هذا السؤال الذي أردت الوصول إليه أخيرًا... وإن كانت نظرتها الحادّة المفاجئة لحوي على إثر هذا السؤال، تكاد تُحدث قشعريرة في جسدي، وكأن هند التي كنت أحاورها قبل لحظات قد تلاشت، وظهرت مكانها هند أخرى!



- «ماذا تقصد؟!»

نبرة استفهامها لا شكّ حادّة.. لا تقل حدة عن توقف السيارة أمام بوابة القصر الخارجية المغلقة، قبل أن تستمر في سيرها من جديد إلى الداخل، بعد أن فُتحت البوّابة.

- «كنت أستعلم فقط إن كان هو الآخر محبا للقراءة مثل أخته».

ليس هذا ما قصدته، لكنّ نظرتها الثاقبة لي على أثر ذكر اسم ذلك الفتى، وكأنّها نمرة تكاد تثب على فريستها، تجعلني أفضّل التراجع!

- «أتحسبني ساذجة إلى هذا الحد؟!»

- «عفوا؟»

- «الّذي بيني وبين أيمن ليس بسر، ولم أحاول إخفاءه عن أحدا أنا لا أفعل أي شيء لست على قناعة به! هل اشتكت لك ندى من تصرف أخيها الأهوج، على حدّ تعبيرها؟! لا أحسب أن أمها هي الّتي أخبرتك، فهي تخشى انتشار الخبر، والفضيحة الناجمة عنه!»

- «دكتورة هند، أظنّك أسأت فهمي... هذه المواضيع لا تخصّني..».

- «أرجوك كفّ عن هذا الهراء!»



توقفت السيارة أمام مدخل فيلا الضيوف... لكم أحمد الله أننا وصلنا حتى أخرج من سيارتها! لا أظنني تعرّضت في حياتي لموقف محرج كهذا!! ما الذي جعلني أذكر اسم أيمن؟!!

هممت بفتح باب السيارة والقفز منها إلى المنزل، ولكنني شعرت بيد تمسك ذراعي. التفتّ إلى هند العاصم، ودقات قلبي تتسارع... أبحث عن كلمات أبرّر فيها ما قلته، أو ما لم أقله، ولكن الكلمات في هذه اللحظات الحرجة تخذلني، وكأنها لا ترغب في الاقتراب منّي أو منها!

- «خذ الحذر... فالأمور ليست دائمًا على ما تبدو عليه».

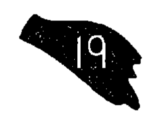
صوت هند الهادئ الساكن من بعد انفجاره قبل لحظات قليلة، هو فقط الذي يتصدّر المشهد الآن... قدرتها العجيبة على ضبط نفسها تفزعني!

لا أعلم إن كانت هند العاصم تهددني، أم تحذرني؟! ولكنني على يقين بأنني لست مستعدًا للبقاء بجوارها ثانية أخرى، حتى أتبين قصدها!

خرجت من سيّارتها مسرعًا...

دخلت الفيلا، وأغلقت الباب من خلفي؛ فتنفست الصعداء.

يا له من موقف عجيب!



يا لغبائي! يا لغبائي!!

ما كان ينبغي لي أن أقحم أيمن في حديثنا، خاصة بعد الذي جرى بينهما قبل ساعات! كأنني كنت أسكب الزيت على النار، وها هي قد كشفت كل شيء، أو على وشك أن توصّل النقاط ببعضها، لتدرك حقيقة تواجدي هنا في القصر! إصراري على رؤية مكتبتها الخاصة عندما زرتها في دارها، ثم تعليقي عن علاقة السحر بالآرامية، وبعد ذلك سؤالي عن علاقتها بأيمن! يا لغبائي! لماذا الاستعجال؟! كان ينبغي لي أن أسير بروية، وحذر، ولكنني تعجلت... يا إلهي، أشعر كأنني كلما تقدمت خطوة، تراجعت عشر خطوات إلى الوراء، بسبب قلة خبرتي في مثل هذه الأمور.

ما كان ينبغي لي أن أطاوع تركي، وأوافق على المجيء إلى هنا! ما دخلي أنا، والتحقيق في مسائل السحر، والسحرة؟!! أنا لست صائدًا للساحرات، على خلاف ما يعتقده الآخرون... أنا مجرد روائي مُزيّف؛ بل إنسان مُزيّف... نعم مُزيّف! الرجل الذي وثق فيّ، وائتمنني على سرّه، ظنًا منه أنني سوف أساعده على تجاوز نكبته، ها هو ذا ينهار أمام عيني، دون أن أتمكن من فعل أي شيء له، لأنني مُزيّف! هند العاصم، إن كانت هي بالفعل من وراء تلك الأحداث، فسوف تحاول القضاء على أخيها في أسرع وقت

لكي تطمس بعدها كل الدلائل على فعلتها؛ وإن لم تكن هي، فما نابلي من فعلتي إلا اكتساب عداوتها!

أدور حول نفسي في الصالون، في حالة من القلق، والامتعاض الشديدين... أفكّر في الخطوة التالية الّتي يجب أن أخطوها... لو لم يكن الوقت متأخرا لهاتفت ندى لكي أخبرها بما جرى، ولكن عليّ أن أنتظر إلى الصباح...

– «سير...».

التفت على الفور إلى مصدر الصوت من خلفي... إنها الخادمة الإندونيسية، كنعد، تحمل صينيّة صغيرة عليها فنجان الشاي الأخضر باللعناع، كالذي طلبته منها البارحة قبل أن أنام... لقد تذكرت... المسكينة ظلت مستيقظة حتّى أحضر، فتجلب لي طلبي.

– «ثانك يو».

أخذت منها الفنجان، وارتشفت محتواه الدافئ، لعلي أشعر بشيء من الارتخاء من بعده... فكم أنا بحاجة لكي أصفّي ذهني الآن.

ظننت أن اليوم سوف يسير على أكمل وجه، ولكنّ ظني قد خاب، على نهايته... التفكير الآن، وأنا في هذه الحالة، لن يجدي نفعًا... لعلّي أخلد إلى النوم، وغدًا يوم جديد أستيقظ فيه صافي الذهن، باحثًا لنفسي عن مخرج جديد لهذا المأزق الّذي وجدت لفسي فيه!



أنا في مكان مظلم، ومهجور لا أعلم كيف وصلت إليه! بيوت قديمة غير مأهولة، أسوارها متهالكة.. متى أتيت إلى هنا؟! هل أنا ما زلت في الرياض؟ أشعر بخوف شديد، لا أدري لماذا؟! ضربات قلبي تتسارع!! صوت أقدام تسير نحوي، ولكنّني لا أرى لها صاحبًا... أشعر أنّني في خطر كبير! أجري من صاحب هذه الأقدام الّتي تلاحقني... إنّه المجهول!! شيء ما يريد المساس بي، لا أعلم ما هو؟! فجأة أجد نفسي أمام حائط يقطع عليّ الطريق... أين أنا؟! الأقدام الّتي تلاحقني تكاد تقترب، ولا أجد لنفسي مكانًا لكي أتوارى فيه!! أصوات تهمس في أذني... تناديني، وتتوعدني! لا أعلم أين أذهب؟! ماذا أفعل؟! ألفّ حول نفسي... أبحث عن أي مخرج... لا شيء... ثم...

استيقظت فجأة من النوم... أتصبّب عرقًا.. يا له من كابوس مزعج! ظلام دامس يحيط بي، مع أنّي، على ما أذكر، تركت النور مفتوحًا في السيب، لكيلا تكون الحجرة غارقة في الظلام هكذا... انتظرت قليلا فوق السرير حتّى تتأقلم عيناي على الضوء الخافت المتسلل، عبر ستارة النافذة، من الخارج... كأنّني أسمع صوت أقدام تتحرك في الطابق السفلي... لعلّها الخادمة.

قمت من فوق السرير، متّجها نحو باب الحجرة، ثم فتحته ببطء لكي أتبين الأمر. خرجت إلى السيب المظلم؛ ومددت يدي إلى مفتاح الإضاءة، لكنه لا يعمل... أصوات أقدام تتحرك من جديد في الطابق السفلي. ناديت على الخادمة، لكنّها لم ترد عليّ... بدأت أشعر بالقلق، ومع ذلك اتجهت إلى الطابق السفلي، لا أدري لماذا؟! أنادي:

- «من هناك؟»

لكن لا أحد يستجيب... مددت يدي نحو مفتاح الإضاءة الخاص بالطابق السفلي، لكن فجأة... أمسكت يد بذراعي! التفتّ إلى جانبي، فوجدت رجلا واقفًا بجواري! تبينت ملامح وجهه: إنه السائق الّذي أقلّني من المطار، وأخذني إلى تلك الأرض المهجورة في جنوب الرياض!

- «ماذا تفعل هنا؟!» صرخت في وجهه... لكنّه لم يجبني.

- «ماذا تريد؟!» صرخت مرّة أخرى... لكنه هذه المرة مدّ يديه نحو عنقي!

دفعته بقوة إلى الأرض، ثم جريت نحو باب الفيلا فوجدته مغلقًا، ولا أستطيع فتحه!! استعاد السائق توازنه واتجه نحوي، وأنا أحاول فتح الباب... من يأسي رفسته، ثم خبطت عليه بقوة لكن لا شيء... جريت نحو الباب الزجاجي المطل على الحديقة الخلفية. التفتّ خلفي نحو السائق، فرأيته يقترب مني، وفي يده



يحمل سكينًا! المجنون يريد قتلي!! حاولت فتح الباب الزجاجي على عجل قبل أن يلحق بي ذلك المعتوه... الباب مغلق!! لا مكان للهرب.. اقترب الرجل مني!! أمسكت بقطعة معدنية تُزيّن منضدة قريبة، وألقيت بها نحو الباب الزجاجي، فانكسر الزجاج، ووجدت لنفسي مخرجًا إلى الحديقة الخلفية.. جريت نحو فيلا إبراهيم العاصم، لعلي أجد نجدتي هناك، لكنّني شعرت بخطوات ذلك الرجل تقترب منّي. شددت على نفسي حتّى أسرع في جريي، ولكنّه مع ذلك يقترب منّي! ظهرت لي الفيلا الرئيسية الّتي أتجه نحوها، بين الأشجار. أرى إضاءة منبعثة من إحدى نوافذها... صرخت بأعلى صوتي مستغيثًا بأي أحد ينقذني من هذا المعتوه الّذي يريد قتلي، ثم فجأة... ظهرت أمامي هند العاصم لتقطع عليّ الطريق! أرى في عينيها كرهًا شديدًا، وجلّ معالم وجهها كأنها تغيّرت! لم تعد تلك المرأة الهادئة الّتي عرفتها... أصبحت أرى أمامي الآن امرأة غاضبة، حانقة، الشرّ هو الذي يحركها! أمسكتْ بي بقوة، ثم دفعتني إلى الأرض!! من أين أتت بكل هذه القوة؟! الرجل الذي كان يطاردني هو الآن فوقي، لكنه لا ينقض عليّ، وكأنه ينتظر إشارة منها...

– «ماذا تريدين منّي؟» صرخت في وجهها...

– «أنت تعلم!»

– «إن فعلت بي أي شيء فسوف تدفعين ثمنه غاليًا! الكل بات يعلم أنّك أنت الّتي سحرت أخاك، وسحرت أيمن!!»

ضحكت هند بصوت مرتفع، وكأنها لا تبالي...

- «لن يلجدك منّي الآن أحد... أنت ميت لا محالة!! لقد انتهى أمرك... انتهى أمرك!»

انقضّ على السائق بالسكين... وفجأة... وجدت نفسي على فراشي!

استيقظت من نومي!

التفت من حولي نزعا... هل كان ذلك كابوسا داخل كابوس؟! إضاءة ساطعة تدخل من النافذة، منبئة بصباح جديد! قرصت ذراعي هذه المرّة لكي أتيقن بأنّني قد استيقظت بالفعل، ولست غارقا في النوم، أحلم... يا له من كابوس فظيع، لم أر في حياتي مثله!! هل سحرتني هند؟! على الفور قفزت من فوق السرير أبحث في كل مكان من الحجرة عن تلك الرسمة المشؤومة! أنظر في كل مكان، لكنّني لم أجد شيئًا؛ ثم التفتّ إلى السرير؛ واستلقيت على ظهري، لكي أدفع نفسي تحته، ممسكا بجوّالي، مستخدما إضاءة كشافه. أبحث عن تلك العلامة... لوهلة لم أرى شيئا؛ ثم بعد قليل، وفي منتصف باطن السرير رأيتها... نجمة خماسية تتوسط ثعبانًا يبتلع ذيله على شكل دائرة؛ وبين أضلع النجمة، تلك الأحرف الآرامية!



الشر ليس له حدود، والسحر هو أحد تجلّياته. لم يعد عندي أدنى شك في ذلك... في الماضي القريب كنت أحسب الأمر مجرد خرافات، ولكنّني تيقنت من حقيقته بعدما تلمّسته بنفسي! كتبت عن مسألة حسبتها لا تتعدى دائرة الخيال، وإذ هي أقرب ما عرفت إلى الواقع... الرواية الّتي كتبتها، وما فتئت أستخفّ بها، لعلّها تكون أصدق ما كتبت في حياتي! عليّ أن أتقبل الحقيقة، وإن كانت لا تروق لي... عليّ أن أتقبل نفسي، أن أتقبل ما كتبت؛ ولعلّ الخلاص يكمن في ذلك. فأنا لست ألبير كامو صاحب «الغريب»... بل أنا الروائي الّذي ألّف «صائد الساحرات» ؛ شئت ذلك، أم أبيت!

***

للسحر أصول، كما لكل شيء في هذه الدنيا، تنطبق على الساحر، والمسحور... تلك القوة الخفيّة الّتي يستخدمها الساحر، لا أحد يعرف حقيقتها، أو مكنونها حتّى الآن... هل هي طاقة كونية غير مكتشفة؟ أم طفرة جينية لدى البعض تمكنهم من قدرات ليست عند الآخرين؟ أم أنها استعانة بمخلوقات خفيّة كالجن لديها معرفة غير تلك الّتي عند بني البشر؟ الإجابة عن

هذه الأسئلة غير معلومة، ولكن ما هو معلوم أن هناك أسرارًا توارثتها أجيال من العاملين في دروب السحر، وتناقلتها عبر مخطوطات تم الكشف عن بعضها؛ منها ما يتعلق بعلاقة الساحر بالمسحور؛ حيث لا بدّ من أثر للمزعوم سحره لكي يربطه الساحر، وكلّما كان هذا الأثر أقوى، كان مفعول السحر أنجز... يُربط هذا الأثر مع مخطوطة من طلاسم تتعلق بالتأثير المرجو من مفعول السحر. هذه الطلاسم تضاعف من مفعول الكلمات المكتوبة والمنطوقة، وكأن لها حياة قائمة بذاتها، فتحدث بداية رابط بين السحر والمسحور، لا يُكمّله سوى علامة الساحر الّتي تميّزه عن دونه من السحرة، وبذلك تكتمل الحلقة السحرية... الدائرة المغلقة الّتي تحتوي على قوى السحر الشاملة الّتي تشير إليها النجمة الخماسية: الأرض، النار، الهواء، الماء، الروح جميعها تتّحد لكي تُشكل القوّة العظمى المبهمة التي يستخدمها الساحر....

الرابط السحري بحاجة لكي يكون قريبا من المسحور، وكلّما ابتعد، ضعُف أثره، إلا إذا كانت هناك علامة سحرية تكون بمثابة همزة الوصل بين الرابط والمسحور. هذه العلامة يسهل رسمها في أي مكان متوارٍ، ولذلك يستخدمها الساحر، حيث يضعها في مكان قريب من المسحور، وبذلك يستطيع تخبئة الرابط السحري في مكان آمن بعيدًا عنه... اكتشاف العلامة، وطمسها، هو

خطوة أولى من ضمن خطوات إبطال مفعول السحر، يتبعها خطوات أخرى، أهمها كشف مكان الرابط السحري الذي يحتوي على أثر المسحور، وحرقه، وهنا تكمن المعضلة! فكيف السبيل إلى اكتشاف المكان الذي دفن فيه الرابط السحري؟ قد تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبة بالنسبة لعامة الناس، ولكنها في غاية السهولة بالنسبة لي، ولندى، ولكل من قرأ رواية «صائد الساحرات»!

***

استرجعت كل ما قرأته، وبحثت، وكتبته عن السحر، وأنا في طريقي إلى ندى، بعدما طمست رسمة علامة الرابط السحري التي وجدتها تحت السرير... طلبت من ندى البارحة أن تتأكد لي من المكان الذي أخذني إليه السائق حين أقلني من المطار... إن صدق ظني، فقد عثرت على المكان الذي دفنت فيه جميع الروابط السحرية التي تخص إبراهيم العاصم، وأيمن، وكل من تمت محاولة سحرهم، بمن فيهم أنا، وذلك السائق، على أغلب الظن! وعندما نجد الروابط السحرية، سنتمكن حينها من إبطال مفعولها نهائيًا بعد حرقها؛ ولكن قبل ذلك، معرفة هوية الساحر عبر ختمه الخاص الذي يستخدمه من أجل إغلاق تلك الروابط!

وصلت إلى فيلا إبراهيم العاصم بعد انقطاع نفسي من



الجري، وما كدت أضغط على زر الجرس، حتى فُتح الباب، فوجدت ندى أمامي وقد ملأها الحماس هي الأخرى...

- «هو المكان ذاته!»

أجابتني على الفور دون أن أسألها.. هذا ما توقعته! فالمكان الذي يدفن فيه الرابط السحري دائمًا ما يُشكل نقطة جذب للمسحور، فتراه يذهب إليه دون أن يشعر، أو يدرك سبب ذهابه إلى ذلك المكان؛ هو فقط ينجذب إليه كما ينجذب الذباب إلى العفن، وإن كان لاحقًا يختلق الأعذار ليبرّر بها سبب ذهابه إلى ذلك المكان الغريب. هذا ما جرى مع أيمن، وهذا ما جرى مع السائق.

- «إذًا علينا الذهاب إلى البيت القديم فورًا!» قلت لندى، فوافقتني دون تردّد.

إذا صحّ ظنّنا، فسنجد هناك جميع الروابط السحرية، والدليل الجازم على شخص الساحر.. لا يزال لديّ أمل بألّا تكون هي هند العاصم؛ لكنّ كل المؤشرات تشير إليها... قصّتها مكتملة الأركان؛ أحداثها مترابطة، ومنسجمة بشكل لا يدع أي مجال للشك. مع الأسف، هذه هي الحقيقة الّتي يجب على ندى أن تتقبّلها هي وأيمن، وإبراهيم العاصم الذي سوف يُصدم، لا شك، عندما يدرك أنّ أخته، ابنة أبيه، هي الّتي سحرته من أجل التخلص منه!



أي روائي جيّد لا بد وأن يُحَضّر للرواية الّتي سوف يكتبها قبل أن يكتبها. لا بد من بحث الموضوع من جميع جوانبه، عبر تنوع المراجع، ومقابلة الأشخاص المعنيين بالقصة إن وجدوا. هذا ما فعلته مع رواية «صائد الساحرات» ، ولعلّ هذا ما جعلها أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال! لقد قابلت من ضمن من قابلت، الشيخ أحمد الرافعي، رئيس شعبة السحر حينها، في فرع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجدة. الرجل كان في غاية التهذيب، والتعاون عندما علم سبب رغبتي في مقابلته، على الرغم من كوني حينها مجرد روائي مغمور، وليس الروائي المشهور الذي أصبحت عليه اليوم. لقد حرص وقتها على أن يشرح لي كل ضروب السحر الّتي كانوا يصادفونها، وكيف يتعاملون معها؛ وعلى الرغم من عدم اقتناعي كثيرًا بما رأيته، إلا أنّ صداقة حميمة نشأت بيني وبين الشيخ أحمد الرافعي، الذي عيّن لاحقًا مديرًا عاما لقسم السحر والشعوذة في الرياض... فكّرت لوهلة أن أتصل به، وأنا في طريقي مع ندى إلى جنوب الرياض، فشاركتها الخاطرة، ولكنّها فضّلت أن ننتظر حتّى نتأكد من الأمر بأنفسنا قبل أن نخبر الهيئة....

- «علينا أن نتأنى قبل أن نخطو أية خطوة غير محسوبة.. فكل هذه مجرد توقعات مبنية على ما جاء في روايتك من أحداث. قد تكون الأمور في الواقع على خلاف ذلك تمامًا».

لعلّها محقة فيما قالت. التأني بالفعل مطلوب إلى أن نتأكد من وجود الروابط السحرية في دار آل العاصم القديمة، التي تمتلكها الآن هند العاصم، وحينها سنجد كذلك ما يدل على شخص الساحر أو الساحرة... تماما مثلما جاء في رواية «صائد الساحرات»...

شيء عجيب! فعندما كتبت تلك الرواية، لم أتخيل أبدا أن تكون بمثابة الدليل الواقعي لأفعال، وتصرفات السحرة! حسبتني كتبت ما جاء فيها من وحي خيالي، وإذ هي أقرب ما يكون إلى واقع السحر، وكأنني كنت على دراية مسبقة بعالم السحر وغموضه! حتّى كلمة «أبراكدابرا» التي أوردتها في الرواية على سبيل التهكم، هأنذا أكتشف بأنّها كلمة راسخة من صميم تراث السحر! لعلّ الخطأ الوحيد الذي وقعت فيه، هو استخدامي للأحرف العبرية عوضًا عن الأحرف الآرامية... حقًا إنّ هذا التطابق لهو شيء عجيب، وكأنّني خلقت لمثل هذا الأمر! وإذا تمكنت من إيجاد الروابط السحرية، وإبطال مفعولها بعد معرفة هوية صانعها، فحينها بالفعل سوف أكون صائدًا للساحرات! يا للأقدار!!

- «مازال يراودك أمل بألّا تكون الدكتورة هند هي من وراء الأحداث؟»



التفتت ندى إليّ سريعا، وكأنّني فاجأتها بالسؤال، ثم عادت إلى الالتفات نحو الطريق. بقدر الأمل الذي أراه في عينيها لقرب اكتشافنا الأعمال السحرية الّتي فعلت أفاعيلها في زوج أمها، وأخيها، بقدر ما أرى كذلك خوفا، وقلقا من اكتشاف هوية الفاعل.. ارتباط ندى عوض بأسرة العاصم، لا شك عظيم جدا. لو أن إبراهيم العاصم أنجب بنتا، لما كانت أكثر ولاء له ولأخته من ربيته هذه الّتي تقود السيارة المتجهة إلى منطقة مهجورة من جنوب الرياض، من أجل إنقاذ حياته!

- «أشعر بأن في الأمر لبسا ما... أنا أعرف طنط هند كما أعرف نفسي تماما، ومن المستحيل أن تكون هي من فعل ذلك! طنط هند ساحرة؟! مسألة لا تدخل العقل تماما!!»

وددت أن أقول لندى: وأي شيء من كل ما جرى حتى الآن يدخل العقل؟! المسألة برمتها هي ضرب من ضروب الجنون! فهل يعقل أنّ إنسانا في القرن الحادي والعشرين يقوم بسحر آخر من أجل القضاء عليه؟! والأدهى من ذلك أن الأحداث تكاد تكون مأخوذة من رواية ألفتها على مضض، نالت شهرة، وصيتا ما كنت أحلم بهما على الإطلاق! صدق من قال: إن الواقع قد يكون أغرب من الخيال...

- «على العموم، كل شيء سوف يتضح بعد قليل، عندما نصل إلى منطقة البيت القديم».



قلت لها، وأنا شبه مقتنع بأننا سنجد دليل إدانة هند العاصم هناك.

***

شعور غريب ينتابني ونحن نقترب من المكان ذاته الذي أخذني إليه السائق في تلك الليلة المغبرة المشؤومة..لم أتخيل حينها أنني سوف أعود إليه مرة أخرى بخاطري، لكي أبحث فيه عن حل هذا اللغز الذي جلبت من أجله! لم أتأمل المكان جيدا في المرة السابقة، فحينئذ كل همي كان منصبا على الخروج من ذلك الموقف الغريب الذي وضعني فيه السائق. لم يخطر على بالي وقتها أنه كان مسحورا، لكن الآن عندما أراجع الأحداث من منظور ما بت أعرفه، فكل شيء يبدو لي أكثر وضوحا.. إذا تأكد شكي، وكانت هند العاصم بالفعل هي الساحرة، فهذا يعني أنها كانت على دراية بسبب مجيئي منذ البداية، ولذلك رتبت محاولة التخلص مني منذ الليلة الأولى! أتذكر لقائي معها أول مرة، وحديثها معي عن مفاهيم السحر، وعن روايتي التي أعجبت بها أيما إعجاب... يا لها من ممثلة بارعة، تمتلك قدرة عجيبة على التحكم في إظهار مشاعرها، بل برودا لم أر له مثيلا من قبل، تظهر المودة نحوي، في حين أنها تخطط للقضاء علي..أعترف بأنها كادت تنجح في خداعي!

– ها قد وصلنا.

تخبرني ندى بصوت مضطرب، وكأنها خائفة من ذلك المجهول الذي سوف تصادفه هنا، ولا تود أن تلقاه، أو تعترف به... أشفق عليها. لحظات وسوف يتأكد ظنّي، لتتيقن بأن من وراء تلك الأحداث الخبيثة هي من كانت بمثابة عمّتها!

المكان يبدو بالفعل موحشًا في النهار... عندما جئته سابقًا في الليل، العاصفة الرملية الّتي ضربت الرياض غطّت على الكثير من معالمه الكئيبة. لعلّ هذا المكان كان في يوم من الأيام يعج بالناس، والديار، ولكن كل ما أراه الآن هو مجرد حطام منازل طينية، متناثرة على مساحة كبيرة، تتخلّلها أزقّة ضيّقة.

ركنت ندى السيارة بجوار منزل كبير متهالك، ثم ترجّلت، وأنا معها أسير بجوارها خطوة بخطوة. أصوات نباح كلاب تجعلها تمسك بذراعي، ثم سرعان ما تشعر بالحرج، لتتركني معتذرة، فأبتسم لها، مبديًا عدم الانزعاج ممّا حدث... لكم أود أن أتعرف عليها أكثر، على هدوء، بعدما ننتهي من كل هذا الجنون. لعلّ قصة جميلة قد تنشأ بيننا على إثر هذه المأساة الكريهة... بدأت أشعر بالامتنان بصدق لرواية «صائد الساحرات» ، ولتركي الّذي حثني على كتابتها؛ فلولاها لما أتيت إلى الرياض من أجل مساعدة إبراهيم العاصم، وأسرته؛ ولما تعرّفت على ندى... رغمًا عني مع الأسف، أردد مع نفسي: مصائب قوم عند قوم فوائد!

- «هذا هو المنزل القديم الّذي كان يسكنه بابا إبراهيم، وطنط هند في الصغر».

- «أهذا الذي بات فيه أيمن؟»

- «في الغالب نعم، بناء على ما سمعته أنت من حوار دار بينه، وبين طنط هند».

تأملت البيت من الخارج قبل أن أدخله، ثم وجدت نفسي أقول:

- «لا أظن أن أي إنسان واع، بكامل عقله، يفكر في المبيت هنا! هذا وحده يجعلني متيقنا بأنه مسحور!»

صدرت شهقة حزينة من ندى، ثم قالت بصوت متحشرج:

- «يا حبيبي يا أيمن! مجرد التفكير في الأمر يجعل بدني يقشعر!»

ويقشعر بدني أنا كذلك!

- «لا تحملي همًا... فكلي أمل بأننا سنجد الحل هنا، وبعدها سوف نطوي هذه الصفحة الكريهة إلى الأبد».

- «إن شاء الله!» تجيبني وهي تنظر إلي برجاء...

لكم أرجو أن يتحول أملي هذا إلى واقع، وألا يخيب ظني، لنجد الأعمال السحرية مدفونة في المنزل القديم، ونقوم بتسليمها إلى قسم السحر بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل إثبات الحالة، والقبض على الساحر أو الساحرة التي أرجو بحق ألا تكون هند العاصم... نهاية سعيدة، هذا كل ما أتمناه الآن، ليظفر البطل بعدها بالبطلة، بعد أن ينقذها، وينقذ أهلها



من براثن الشر! أظن أن من أسرار نجاح رواية «صائد الساحرات» هي نهايتها السعيدة. سئمت من النهايات التعيسة كنهاية رواية ألبير كامو «الغريب»، أو نهايات رواياتي الثلاث الأولى!

***

ولجت عبر باب خشبي متآكل إلى داخل البيت القديم، وندى بجانبي أكاد أسمع دقات قلبها المتسارعة. وجودها بجواري، محتمية بي، يمدني بشجاعة ما كنت أحسبها فيّ... أكاد أكون مقتنعا بأنني صائد للساحرات بحق! أتصرف، وأتحرك بكل ثقة داخل المساحات المهجورة، باحثًا عن أي شيء يدل على مكان الدفن. في الرواية التي كتبتها، الساحرة تدفن الرابط السحري في أقذر مكان؛ لعلّه يكون هذا هو المكان الذي دُفنت فيه الروابط السحرية هنا... المرحاض... لا أظن يوجد مكان أقذر منه. هذا البيت مكون من طابقين. بحثت في الطابق الأول عن مرحاض الضيوف لكي أبدأ بالتفتيش فيه... مهمة قذرة لا شك!

– «أنت تبحث عن المرحاض أليس كذلك؟»

توقعت أن تفهم ندى ما أنا بصدده... شعور جميل أن تفهمك المرأة دون الحاجة لكي تفصح لها عمّا يجول بخاطرك.

– «صحيح».

أجبتها مبتسما، مبديا لها إعجابي بفطنتها.

دخلت زاوية تعرفت عليها من رائحتها الكريهة. رأيت في الأرض آثار فتحة مرحاض عربي قديم. نظرت إلى ندى، ونظرت هي إليّ، وقد أدركنا ما يجب عليّ فعله... ليتني جلبت معي قفّازا! هممت بمد ذراعي، ولكنها استوقفتني...

- «لماذا لا تستخدم عصا؟»

يا لبلاهتي! كيف لم أفكر أنا بالأمر؟! ولكن من أجل الحفاظ على ماء الوجه، أتظاهر لها بأن الخاطرة لم تفتني...

- «وأين هي العصا؟ في الحالات العصيبة لا بدّ مما ليس منه بدّ»

- «لحظة... أظنني لمحت شيئا ينفع عند مدخل الدار».

ذهبت ندى، ثم عادت بعد لحظات قليلة حاملة معها قطعة خشبية طويلة، تؤدي الغرض المطلوب، ثم قالت وهي تناولني إيّاها:

- «ما رأيك في هذه؟»

- «أظنها تفي بالغرض».

أخذت القطعة الخشبية منها، ثم وضعتها على مضخ... فتحة المرحاض... يبدو أن المكان قد استخدم منذ زمن ... مما يفسّر هذه الرائحة الكريهة! أكاد أتقيأ من القرف! ... نحو ندى، فوجدتها تضع طرحتها على أنفها حتى تحجب ... الروائح!



تفحص دقيق، ثم أزحت الخشبة من الفتحة.

- «لا أظنّها هنا.. لعلّنا نبحث في الطابق العلوي».

صعدنا السلّم المتهالك، على مهل، حاملا معي القطعة الخشبيّة بعد أن تمرّغتْ في فضلات شخص ما، أخذ راحته في المرحاض السفلي... في الرواية الّتي كتبتها لم تكن عملية البحث عن الرابط السحري بهذا القرف! يبقى الخيال أنظف بكثير من الواقع مع الأسف!!

وجدت ما تبقى من دورة مياه في الطابق العلوي. هي الوحيدة على ما يبدو. إن لم تكن الروابط السحرية هنا، فأنا في مأزق كبير، حيث لا أعلم أين أبحث من بعد ذلك. نظرت نحو ندى، ثم وضعت الخشبة في فتحة مرحاض شبيهة بتلك الّتي في الطابق الأرضي، وعلى الفور شعرت بشيء... التفتّ مرّة أخرى نحو ندى، ولكن هذه المرّة تعابير وجهي تفضح دهشتي!

- «هل وجدتَ شيئًا؟!»

سألتني بنبرة لا تخلو من الشغف.

أود أن أجيبها، وإن كان كل همّي في هذه اللحظة أن أمسك بما يبدو لي كيسا في داخله أوراق مطوية... رميت بالخشبة جانبًا بعد أن أمسكت بالكيس، ثم أخرجته ببطء شديد، غير مصدق ما قد وجدت!



- «الروابط السحرية؟!»

كلمتان صدرتا من ندى بصوت مرتجف، لا أدري إن كانتا في صيغة سؤال أم إقرار، فوجدت نفسي على الفور أشق الكيس حتى أطّلع على الذي بداخله...

أربعة أوراق مطوية بشكل هندسي، كل منها مربوطة بخيط للحفاظ على ما بداخلها من أغراض، تماما كما وصفت في الرواية! كل رابط من هذه الروابط السحرية من المفترض أنه يخص شخصا مسحورا... أربعة روابط تعني أربعة أشخاص: إبراهيم العاصم، أيمن عوض، السائق، وأنا! لكن هذا ليس كل شيء؛ فمن المفترض أن نجد ختم الساحر أو الساحرة على كل رابط من الخارج. ومن الداخل سنجد الأثر الذي يخص المسحور؛ كخصلة شعر، أو قطعة قماش من ملابسه الداخلية، عليها عرقه...

تفحصت الروابط بحثا عن ذلك الختم، فوجدت ما كنت أتوقعه، وأخشاه... ثلاثة أحرف بالآراميّة أدركتها فور ما رأيتها: هاء... نون... دال...

هلدا!



خيبة الأمل الّتي رأيتها على وجه ندى طمست نشوة انتصاري لما تمكنت من تحقيقه.. نعم لقد فعلتها، لا أدري كيف؟ ولكنني فعلتها، وتوصلت إلى حل اللغز الذي جئت إلى الرياض من أجل الكشف عنه! كأن الرواية تجسّدت في، أو ربما أنا الذي تجسّدت في الرواية! شعور عجيب لا أدري كيف أصفه، ولكنّه مزيج من الرضا عن النفس، وخيبة الرجاء في الوقت ذاته.. كنت أتمنى، من أجل عائلة العاصم، ألا تكون هند هي شرّيرة هذه القصّة. ليتها كانت الخادمة الإندونيسية، كنعد، أو السائق السوداني، جعفر، أو حتّى «البتلر» الإنجليزي، ستيوارت! لكنّ الأخت هي من حاولت قتل أخيها، وبأبشع الطرق! من أجل ماذا؟! لكي تنفرد بعشيق في نصف عمرها، مغلوب على أمره، جرّاء عمل سحري؟! صدق تركي عندما قال لي بأنّني سوف أجد الجزء الثاني من الرواية هنا...

أرادت ندى أن نحرق الروابط السحريّة، ونكتفي بهذا القدر، ولكن هيهات، فالحياة في الواقع لا تحمل دائمًا حلولا سهلة كما في الروايات.. إنّها ليست مجرد أعمال سحرية يمكن تجاوزها بهذه السهولة، إنما هو شروع في القتل، ويجب محاسبة فاعله. كان لابد من إثبات الحالة، فوجب الاتصال بالشيخ أحمد الرافعي، وأخباره بكل شيء لكي يرسل لنا مندوبي الهيئة.. عقاب السحر

في السعودية قطع الرقبة، وهذا ما أدركته ندى جيّدا، وخشيته على هند العاصم.

- «هي التي جنت على نفسها بفعلتها القبيحة». كان كل ما بوسعي قوله.

إن كان هناك شيء علمتني إياه الحياة، أن الإنسان يجب أن يتحمل نتائج قراراته مهما كانت هذه النتائج مؤلمة. لعل العشق هو الذي جعل هند تفعل ما فعلته، أو ربما الجشع، والطمع في إرث أخيها، لا أدري، ولكن كل ما أعلمه الآن، هو أنها قامت بعمل إجرامي، ويجب عليها أن تدفع الثمن.

- «ولكن... بابا إبراهيم سيتحطم قلبه عندما يعلم... هي في نهاية المطاف أخته!»

- «قابيل قتل هابيل وهما شقيقان... مع الأسف الإنسان كائن قابل لفعل أفظع الشرور، حتى مع أقرب الناس إليه».

صدرت منّي هذه الجملة، وسرعان ما ندمت عليها. كان يجب أن أهوّن على ندى، لا أن أزيدها قتامة. يكفيها ما هي فيه الآن...

- «الشيخ إبراهيم رجل قوي، ومؤمن... أنا واثق بأنّه سوف يتحمّل الصدمة، ويتجاوزها، وأنا على أتم الاستعداد لأن أبقى هنا في الرياض حتى أطمئن عليه، وعليكم جميعا».

نظرت إليّ ندى نظرة كلها امتنان... تحاول رسم ابتسامة على وجهها... كم أدرك معاناتها، وهي تحاول جاهدة التماسك



أمامي، وما يزيدني هذا إلا إعجابًا بها. لكم أودّ أن أضمها الآن إلى صدري، لكي تعلم مدى حرصي عليها.. وانشغالي بها.

- «لا أعلم ماذا كنّا سنفعل لولاك».

لا أظنّ أن أية كلمة ثناء سيكون وقعها عليّ أعظم ممّا سمعته منها الآن! مفعول جملتها هذه عليّ هو أشبه بالسحر... أصبحت أعشق رواية «صائد الساحرات» فقط من أجل هذا الموقف البديع، وهذا الشعور اللذيذ!

***

حضر رجال الهيئة، بعد أن شرح لهم الشيخ أحمد الوضع... كانوا في غاية اللطف، والتفهم. سلّمتهم الروابط السحرية، وطلبت منهم أن أذهب أنا أولا لهند العاصم قبل أن يقبضوا عليها بمعيّة الشرطة. أظن أن علاقتي الوثيقة برئيسهم جعلتهم يوافقون، وإن كان على مضض. أردت أن أكون أول من يواجه هند؛ لعلّه الشعور بالمسؤولية تجاه هذه العائلة المنكوبة، أو ربما هي رغبة دفينة عندي لكي أبيّن لها أنّني أنا الّذي اكتشفت أمرها، وأنّها لم تتمكن من خداعي! أعترف بأنّني خدعت بها في البداية. لقد أبهرتني شخصيتها، كما ارتحت لتعاطفها معي. لكن مع الأسف، اتضح لي الآن أن كل هذا كان يخفي من ورائه خبثًا كبيرًا! لذلك يجب أن أكون أنا أوّل المواجهين لها، بعد أن اكتشفتُ أمرها!

***

رننت جرس فيلا هند العاصم، ومن حولي الشرطة، ورجال الهيئة... انتظرت قليلا، ففتحت لي الخادمة الباب، وما إن فتحت حتّى ظهرت الدهشة لرؤية الذين حضروا معي؛ حتمًا هي لم تعتد على رؤية مثل هؤلاء هنا... لم ننتظر أخذ إذن الخادمة المذهولة من أجل الولوج إلى داخل الدار. سألتها على الفور عن مكان تواجد سيدتها، فأشارت إلى المكتبة... هند العاصم في المكان ذاته الّذي اكتشفت فيه أول الخيط الّذي قادلي لاكتشاف أمرها، يا لسخرية القدر! وكما اتفقت مع الشيخ أحمد الرافعي، ذهبت لكي أواجهها بمفردي أولا، قبل أن يتم القبض عليها؛ فلعلّ الأمر يسير على نحو أفضل لو تم بهذا الشكل، من أجل تجنب فضيحة المقاومة، وإن كنت أدرك جيّدا أنّها على دراية بأن انكشاف أمرها يعني نهايتها!

ذهبت إلى المكتبة، وطرقت الباب مستأذنا بالدخول، قبل أن أفتحه ببطء. فرأيت هند العاصم جالسة على أريكة تتفحص بتمعن غريب أوراقا بين يديها، غير آبهة بي، وكأنّني غير موجود. تبدو مضطربة، وهي تقلب بين الأوراق على عجل، تردّد كلمات لا أعرف معناها... هل تحاول إحداث سحر أخير؟!

- «دكتورة هند».

التفتت إليّ، وكأن صوتي نبهها لوجودي... فرمقتني بنظرات لا تخلو من الذهول، وكأنّها أدركت، لا أعلم كيف، سبب مجيئي إلى هنا.

- «أنت؟ ماذا تريد؟»

رددت عليها متحليًا بالهدوء لكيلا أثير غضبها:

- «ظهرت الحقيقة يا دكتورة هند.. كل شيء قد انكشف... لقد وجدت الروابط السحرية».

نظرت إليّ بتعجب ملحوظ، ثم تقدمت نحوي... أتساءل في نفسي: هل بالفعل تفاجأت ممّا قلته، أم أنّها فقط تتظاهر؟

- «عمّ تتحدث؟»

يبدو أن هند العاصم متعددة المواهب، فهي بحق ممثلة بارعة... من المستحيل ألا تكون قد فهمت قصدي حتّى الآن!

- «دكتورة هند، أنتم أسرة كريمة، ولعلّ ما فعلته كان ناتجًا عن الضغط العاطفي الذي...».

- «لا تقحم نفسك فيما لا يعنيك! ما بيني، وبين أيمن لا يخص أحدًا سوانا.. أمّه العقربة سممت أفكارك أنت أيضًا بلا شك!!»

والّذي لا شك فيه أن سيرة العلاقة الّتي تجمعها بأيمن هي بمثابة الوتر الحساس عندها... أرى في عيني هند الآن الغضب المخيف الكاسح ذاته الّذي رأيته ليلة البارحة عندما سألتها عن أيمن! هو بلا شك نقطة ضعفها؛ من أجل عشقها له، كأنها على أتم استعداد لفعل أي شيء من أجل القضاء على من يقف عقبة في طريقها؛ لا أستبعد أن تكون على وشك تحضير سحر جديد، موجه هذه المرّة ضد ناهد، أم أيمن!

- «دكتورة هند، أنا لا أتحدث عن علاقتك بأيمن، فهذا أمر لا يخصني، ولا يعنيني؛ ولكن الذي يعليني هو ما فعلته بأخيك».
- «إبراهيم؟ ماذا فعلت به؟!»
- «كما قلت لك قبل قليل، لقد الكشف كل شيء، ووجدنا الروابط السحرية. الإنكار لن يفيدك الآن».
- «عن أية روابط سحرية تتحدث؟! هل تظن لفسك في رواية من رواياتك؟! أم أن نجاح روايتك الأخيرة جعلك تصاب بلوثة عقلية، فبت تحسب أننا لعيش بالفعل في عالم من السحر والسحرة، وأنك صائد للساحرات؟!»

اقتربت هند العاصم مني أكثر، ثم ناولتني بغضب الأوراق التي معها، وهي تصرخ:

- «هل أنت من وضع هذه التخاريف في مكتبتي؟! هل تسللت إلى منزلي في غيابي؟!»

نظرت إلى الأوراق... مجموعة من الطلاسم، والأحرف الآرامية، والعلامة المشؤومة ذاتها! تشبه كثيرًا تلك التي وجدتها في البيت القديم!! دليل آخر على إدانتها...

فُتح باب المكتبة فجأة، ليدخل منه رجال الهيئة، والشرطة، لا شكّ على أثر صراخها.. اتجهوا على الفور إلى هند العاصم من أجل القبض عليها، وسط دهشتها...

-«ما معنى هذا؟! ماذا تفعلون؟! من أذن لكم بدخول منزلي؟!»

استمرت هند في صراخها، وهم يقتادونها إلى الخارج.. حاولت تهدئة الموقف، ولكن بلا طائل، يبدو أن صبر رجال الهيئة قد نفد... لكم بث أعذر لدى على عدم رغبتها في التواجد هنا أثناء القبض على هند العاصم. لقد آلمني هذا المشهد، ولكنها هي الّتي جنت على نفسها بفعلتها الشنيعة، وكل إنسان يجب أن يحصد نتائج أفعاله...

يا لها من صفحة عجيبة تُطوى! كنت أحسب أن مثل هذه الأمور لا تحدث إلا فقط في الروايات، ولكن ها هي ذا تحصل كذلك على أرض الواقع؛ ولعجبي، أنا بشكل أو بآخر، شاركت في أحداثها! أحمد الله أنّني بطل هذه القصّة، ولست شرّيرها، أو ضحيّتها!



كيف تُصنع الأساطير؟ أمن كذبة مقصودة؟ أم من حقيقة يتم تضخيمها حتّى تتجاوز حد المعقول؟ لعلّ الأسطورة ليست سوى حقيقة مُبهمة، غير واضحة المعالم...

شيء عجيب هذا الذي حدث خلال اليومين السابقين، من بعد القبض على هند الغاصم... كيف انتشر الخبر بهذه السرعة العجيبة، كانتشار النار في الهشيم، ليصبح حديث القاصي والداني، ليس في الرياض وحسب، بل في كافة أنحاء البلاد! لقد قالها تركي، وصدق... نجاحي في هذه المهمة سوف ينقلني نقلة ما كان ليحلم بها أي روائي في العالم!

- «أنت لم تعد تصنع الروايات، بل تصنع الأساطير» أضاف تركي البارحة وهو يهنئني، بعد أن برئ إبراهيم العاصم من حالة السحر التي كان يعانيها.

لم يكن صاحب القصر هو الوحيد الذي تحرّر من رباط السحر، والعجيب كذلك كيف استفاق أيمن من حالة العشق، والهيام، وكأنّ شيئًا لم يكن! كل هذا تحقق لأنّني تمكنت من الوصول إلى الروابط السحرية التي تم حرقها لاحقًا من قبل رجال الهيئة بعد ضبطها، وتسجيلها من أجل محاسبة صانعها.. لقد تسرّب



الخبر إلى الناس، لا أعلم كيف؟ تحولت رواية الأحداث إلى صراع كبير دار بيلي، وبين الساحرة العظيمة التي سحرت أسرة أخيها كاملة، وكادت تقضي عليّ أنا كذلك، لولا حنكتي، وبراعتي في التصدي لمثل هذه الأمور! كأنّه فيلم من أفلام «هاري بوتر» ، حيث يتصارع الساحر الشاب مع «فولديمورت» الشرّير، لينتصر البطل في النهاية!! أجنّ الناس، أم أنا الّذي جننت؟! لا أدري... كل ما أعلمه هو أنني أصبحت نجما فاقت نجوميّته هذا الكوكب، بل هذه المجرّة! باتت تأتيني طلبات من كافة أرجاء المعمورة من أشخاص نافذين، ما كنت أتخيل في يوم ما أن أحادثهم، يستجدونني من أجل المساعدة في كشف أغوار سحر يظنون أنهم تعرضوا له!! كأن جميع رجال الأعمال، وصنّاع القرار فجأة اكتشفوا أنهم مسحورون!!!

- «هي مسألة وقت لا أكثر، قبل أن تطرق هوليوود بابك، فاستعد من الآن». قالها تركي بثقة، ولا أستبعد ما قال، قياسًا على ما بثّ أراه، في مدى يومين فقط!

يا لها من دنيا عجيبة، وحياة غريبة.. إلى قبل سنتين فقط، كنت روائيًا مغمورًا، وإنسانًا مجهولًا؛ وهأنذا اليوم قد أصبحت أشهر من أشهر النجوم؛ الكل يخطب ودّي، ويتمنى لقائي. أسير في الطرقات، فيتعرف عليّ الصغير قبل الكبير!

***



سرت صباح اليوم إلى مقهى نوّاف الخضير الثقافي، «قهوة وكتاب» ، متخفّيا وراء نظارة شمسية، وطرف شماغي، كما المشاهير، بعد أن تداولت صورتي جميع وسائل الإعلام... آلة تركي الإعلامية قد فعلت أفاعيلها! أرغب في تناول قهوة الصباح وسط عبق الثقافة، محاطا بغدير الكتب، بعيدًا عن هذا الصخب المجنون الزائل. لقد واعدت نوّافا، رغبة في لقائه قبل أن أعود غدا إلى جدّة. سويعات النهار هذه هي فرصتي الوحيدة اليوم من أجل التحدث مع هذا الرجل المثقف الجميل، قبل أن أنشغل لاحقًا بالحفل المسائي الكبير الّذي سوف يقيمه إبراهيم العاصم في قصره على شرفي... ولجت إلى المجمع الأنيق ذاته الّذي حضرت إليه قبل أيام، متّجها نحو ذلك المقهى الراقي الّذي توصّلت فيه إلى أول الخيط الّذي قادني إلى فك طلاسم اللغز المُحيّر الّذي حضرت إلى هذه المدينة من أجله. فتحت الباب، ومن حسن الحظ أني رأيت المكان خاليًا إلا من نوّاف الذي وقف لي مادًا يده ليصافحني، ويهنئني بنجاحي الجديد. رأيت في وجهه سعادة صادقة، خالية من الرياء.... بعد التحيّة، والتهنئة، والمصافحة جلسنا، ثم قال:

– «عندي لك مفاجأة».

– «خير».

– «الدكتور منذر القبّاني سيلحق بنا بعد قليل».



- «مفاجأة جميلة».

منذر القبّاني.. أظنّني التقيت به مرّة واحدة قبل سنوات، عندما كنت مجرّد روائيّ مغمور، لا أحد يرغب في شراء كتبه. تمنّيت حينها أن أنال ولو ربع شهرته.. سبحان مبدّل الأحوال؛ هأنذا قد تجاوزت شهرته بمراحل عدّة.

- «والله كنت أتمنى أن أقيم لك ندوة ثقافية هنا في المقهى. خسارة أنّك لم تتمكن من حضور ندوة ياسر عبّاس، لكي ترى بنفسك حجم إقبال روّاد مقهانا الثقافي لمثل هذه الأمسيات».

- «والله كان بودي يا نوّاف، ولكن الوقت كان ضيّقًا... في المرّة القادمة إن شاء الله».

سوف أحاول ترتيب زيارة خاصة إلى الرياض فقط من أجل خاطر هذا الرجل الطيّب.

- «أريدك أن تعدني بأن تقيم حفل تدشين لروايتك القادمة، التي ننتظرها جميعًا بفارغ الصبر، هنا في قهوة وكتاب... وبالمناسبة، حينها سوف يكون المكان أوسع بكثير، وبالتالي سنستوعب عددًا أكبر من قرائك الكثر».

- «أوسع؟ كيف؟»

- «آه.. نسيت أن أخبرك في المرّة السابقة أنّنا استأجرنا



المعرض المجاور، وقد وافق صاحب العقار على أن نهدم الحائط الفاصل، إذا وقّعنا عقدًا لمدّة خمس سنوات. بالمناسبة ذلك المعرض كان أحد أكبر فروع سلسلة صيدليات العاصم، التابعة للشيخ إبراهيم العاصم الذي أنقذت حياته.

- «صيدليات العاصم يشرف عليها ربيبه أيمن عوض».

أذكر أن تركي أخبرني بتلك المعلومة عندما كُنّا في دبي، عندما عرض عليّ المهمة المجنونة الّتي أتت بي إلى الرياض... أتذكر الحوار الّذي دار بيننا حينها، وكأنّه حدث قبل لحظات.

- «يبدو أن حال الثقافة هذه الأيام أفضل من حال الصيدليات... هو يغلق، ونحن نتوسع».

يعجبني تفاؤل نوّاف الدائم. هو هكذا منذ أن تعرفت عليه، لم يتغيّر. يؤمن بأن الثقافة إذا قُدمت بشكل عصري، وجذّاب، فسوف يقبل عليها الشباب... على ما يبدو لي أنّه محق.

- «أنت تستحق كل خير على ما تبذله من جهود جبّارة من أجل نشر الثقافة بين الشباب، وأنا يشرفني أن أدشن روايتي القادمة عندك هنا، خاصة وأن أحداثها تدور على مقربة من هذا المكان».

مصائب قوم عند قوم فوائد...

- «بمناسبة الأماكن الّتي تدور فيها أحداث الرواية القادمة، خطرت على بالي للتوّ فكرة جميلة... ما رأيك في أن نقيم أمسية ثانية في المسرح التراثي بعد الانتهاء من بنائه، تقرأ من خلالها الجزء الّذي تتحدث فيه عن اكتشافك للروابط السحريّة في المكان ذاته قبل أن يعاد تأهيله.. أنا واثق بأنّ عددًا كبيرًا من قرّائك سوف يتكالبون على حضور أمسية خرافية كهذه! قراءة النص من قلب الحدث!»

لم أفهم على الإطلاق ماذا يقصد نوّاف... عمّ يتحدث؟

- «أي مسرح تراثي تقصد؟ وما علاقته بالخرابة الّتي وجدت فيها الروابط السحرية؟»

- «حسبتك تعلم.. هذا مشروع كبير تمّ الإعلان عنه منذ نحو أسبوعين، سوف تشرف عليه هيئة الثقافة، بعد أن تبرعت هند العاصم بالأرض من أجل إقامته.. الحمد لله أن هذا الأمر قد حُسم قبل القبض عليها، فالرياض بحاجة لمثل هذه المشاريع الثقافية الكبيرة».

- «غريبة... فالمكان لا يزال مهجورًا. لم أرَ أي شيء يدل على إقامة مشروع كالذي تتحدث عنه».

- «أظنهم سوف يبدؤون العمل فيه الشهر القادم. كانت هناك مشكلة في صك الأرض، أو شيء من هذا القبيل».



كأن ندى لم تكن على علم بهذا المشروع الثقافي، فهي لم تذكر لي أي شيء عن هذا الموضوع، مع أنّنا كنّا في الأرض الّتي سوف يقام عليها.. من حسن الحظ أنّنا وجدنا الطلاسم هناك قبل أن تبدأ عمليات الحفر، ولكانت ضاعت إلى الأبد وما تمكّنا من الوصول إليها! يا له من توقيت دقيق!

- «هذا المشروع سوف يحيي المنطقة بأكملها، لذلك تضاعفت أسعار الأراضي المحيطة فجأة فور الإعلان عن الخبر، وسترتفع أكثر بكثير بعد إقامة المشروع... لو كنت أعلم سلفًا بالخبر، لاشتريت لنفسي قطعة أرض هناك على سبيل الاستثمار!»

شيء عجيب هذا التناقض الّذي أتلمسه في شخص هند العاصم. تتبرع بأرض من أجل مشروع ثقافي، وفي الوقت ذاته تمارس السحر من أجل التخلص من أخيها. أتساءل في نفسي إن كان الشرّ فيها كامنًا منذ زمن طويل، ولكنّها نجحت في إخفائه عن الجميع؟ أم أن عشقها لأيمن، وخوفها من فقدانه، هو الّذي أحيا فيها هذا الشر؟ هل يمكن لقلب الإنسان أن يحتوي كل هذا الحب، وكل هذا الشر في الوقت ذاته؟ سرّ العاطفة دفين، ولطالما حيّر الأدباء.

- «ها قد وصل أخيرًا»

رأيت ابتسامة عريضة على وجه نوّاف، وهو يشير إلى الشخص



القادم من الخارج، ثم اتجه على الفور نحو باب المقهى من أجل استقباله... هو كما أذكره، لم يتغير كثيرًا، وإن كنت هذه المرّة أراه من دون اللباس التقليدي، فيبدو أكثر ارتياحًا.

- «أهلا بالدكتور.. شرّفت قهوة وكتاب».

صافح نوّاف منذر القبّاني بحرارة صادقة عفوية، ليست فيها أية مجاملة، ثم اصطحبه نحوي...



– «لا يوجد في هذه الدنيا شر مطلق، أو خير مطلق، ولكنّها موازنة بين الأمرين؛ فإذا طغى الخير على الشر وصفنا الشخص أو الحدث المعني بالخيّر، وإذا طغى الشر على الخير، وصفناه بالشرير؛ لكن حتّى الإنسان الخيّر قد تنتج عنه تصرفات شريرة، والعكس صحيح».

يعجبني في منذر القبّاني أنه لا يحب إضاعة الوقت في المجاملات، ويفضّل الدخول في النقاش مباشرة؛ فبعد تهنئة سريعة على فوز رواية «صائد الساحرات» بالجائزة الكبرى، وكذلك على ما تمّ تداوله في اليومين السابقين عبر الإعلام الجديد عن كشفي لمؤامرة السحر الّتي أصابت إبراهيم العاصم وأسرته، وإنقاذي لهم، أخذ مباشرة في التحدث عن فلسفة الخير والشر.

– «ولكن ألا تظن يا دكتور أنّ السحر شر مطلق؟»

– «علينا أولا أن نعرّف ما هو السحر».

جملته هذه تذكرني بأول لقاء لي مع هند العاصم، والحوار الّذي دار بيننا حينها... فجأة خطر على بالي سؤال ملح...

– «بالمناسبة يا دكتور، هل سبق لك وأن التقيت بهند العاصم؟»

– «نعم، مرّة واحدة منذ سنة تقريبًا».

- «كيف وجدتها، والمعروف عنك دقّة الملاحظة؟ من المؤكد أنك شككت في أمرها؟» قاطعه نوّاف، وقد غمره الحماس لهذه المعلومة الّتي من الواضح أنّه لم يكن على دراية بها.

- «بدت لي إنسانة مثقفة في غاية اللطف؛ واثقة من نفسها إلى أبعد الحدود، وإن كانت تشعر بغربة تحاول إخفاءها بكثرة الحديث».

- «كثرة الحديث؟»

أعترف بأنني لم أفهم قصده من هذه الجملة، وإن كنت أستشعر تعاطفه معها.

- «الإنسان عندما يشعر بالغربة مع محيطه، فهو عادة ما يلجأ إلى أحد أمرين: إما العزلة التامة، أو المبالغة في إظهار الانتماء عبر كثرة الحديث، وكأنّه يحاول من خلال ذلك إخفاء حقيقة لا يرغب في اكتشافها أحد».

- «لعلّ الحقيقة الّتي حاولت هند العاصم إخفاءها هي نزعتها الشرّيرة، واستخدامها للسحر».

يبدو أن منذر القبّاني يجنح إلى ما توصلت إليه دون أن يدري.. لقد أدرك بحنكته عندما التقاها أنّها تخفي سرًا، ولكنّه أخطأ في معرفة طبيعة ذلك السر.

- «لا أتفق معك في هذا الاستنتاج».

- «ولكنك لم تلتق بها يا دكتور إلا مرة واحدة، ومن الصعب معرفة إنسان من مجرد لقاء واحد».

ملاحظة نواف في محلها... ملذر القبّاني، كما قال قبل قليل، لم يقابل هند العاصم إلا مرّة واحدة، فعلى أي أساس يختلف معي في الحكم عليها، وأنا الّذي التقيتها عدّة مرات؟!

- «لو كان آرثر كونان دويل حيّاً يا نوّاف، لاستصاب من جملتك هذه؛ فأنت تنسف بها جملة مشروعه الأدبي».

- «أنا؟! كيف؟»

أعترف بأنني كذلك لم أفهم ماذا يقصد القبّاني... فما علاقة ما قاله نوّاف بالكاتب البريطاني آرثر كونان دويل، صاحب شخصيّة شرلوك هولمز؟!

- «لأنّك تُشكّك في قدرات أشهر شخصية مُتَخيّلة في تاريخ الأدب العالمي، الّتي كتب عنها آرثر كونان دويل أربع روايات، وستا وخمسين قصة قصيرة. شرلوك هولمز كان يحل معظم الألغاز عبر الملاحظة الّتي قد لا تستغرق أكثر من لقاء واحد، في كثير من الأحيان».

ضحك نوّاف مدركًا الدعابة، ثم قال:

- «كلامك صحيح يا دكتور... أعتذر».

- «أنا شخصيا أرى أن مثل هذه المبالغات الّتي ابتدعها آرثر كونان دويل حول شرلوك هولمز، لا تصنع أدبا راقيا».

نظر إليّ منذر القبّاني مندهشا، وكأنّ ما قلته لم يعجبه، قبل أن يبادر بالتعليق:

- «يا عزيزي، تاريخ الأدب كله قائم على المبالغة، بشكل أو بآخر، وإن كنتُ أرى أن ما كتبه آرثر كونان دويل فيه القليل من المبالغة؛ فكل ما فعله أنه نقل ما تعلمه في كلّيّة الطب من ملاحظة التفاصيل الدقيقة من أجل استنتاج المرض، إلى عالم الجريمة. الّذي يفعله شرلوك هولمز هو تماما ما يفعله أي طبيب شاطر».

يا لها من مبالغة شديدة! لا أدري عمّ يتحدث منذر القبّاني، ولكن من الواضح انحيازه التام لآرثر كونان دويل فقط لأنه طبيب مثله! هم هكذا الأطباء دائما، عندما يدخلون معترك الأدب، ينحازون لبعضهم، ويبالغون في قدراتهم! لكم أشتاط غيظا لمثل هذه الغطرسة الّتي لا أطيقها...

أفكر في ردّ أنسف به ما قاله، وفجأة تسوق لي الأقدار فرصة لكي أحرج من خلالها هذا الطبيب الأديب!

دخل رجل في الثلاثين من عمره إلى المقهى؛ مر من أمامنا متجها إلى طاولة في الركن. من الواضح أنه لم يتعرف على أحد منا. خطرت ببالي فكرة شيطانية!



- «هل بإمكانك يا دكتور مثلا أن تستنتج أي شيء عن ذاك الرجل الّذي يجلس على الطاولة هناك».

نظر ملذر القبّاني نحوه، وكذلك نوّاف الّذي أظنّه شعر بالحرج من أجل ضيفه الّذي يدّعي أن أي طبيب شاطر بإمكانه فعل ما يفعله شرلوك هولمز! لكم أكره المبالغات!!

- «المسألة ليست على هذا النحو.. الدكتور لم يقصد...».

يحاول نوّاف ترقيع الموقف، ولكن منذر القبّاني قاطعه على الفور:

- «هو أشول، يعزف على الجيتار الكلاسيكي، وفي الغالب يعشق موسيقى الفلامينجو. يمتلك منزلا في مدينة مربيا الإسبانيّة، حيث كان يقضي هناك إجازة الصيف الماضي. كان متزوجا إلى فترة قصيرة، ولديه طفلة في الحضانة... مع الأسف هذا كل ما استطعت معرفته حتّى الآن».

نظر نوّاف إلى منذر القبّاني مندهشا، ثم سأل:

- «هل تعرف هذا الرجل يا دكتور؟»

- «هذه أول مرّة أراه في حياتي».

استأذننا نوّاف، ودون أن تغادر معالم وجهه الدهشة، ذهب إلى الرجل وصافحه. استغربت تصرفه هذا، وإن كنت أعذره، فالفضول يملؤني أنا كذلك لمعرفة مدى صحة وصف منذر

القبّاني لهذا الرجل الذي رآه لأول مرّة هنا... لا أظنّ أن القبّاني توقع ردّة فعل نواف التلقائية. أكاد أجزم بأنّه يخشى الإحراج عندما يكتشف أن جل ما قاله عن الرجل غير صحيح، فمن المستحيل أن يعرف كل هذا عن شخص رآه للتوّ... يعزف على الجيتار، وبالتحديد الجيتار الكلاسيكي؟! أشول، كان متزوجا إلى فترة قصيرة، لديه طفلة في الحضانة، ذهب إلى مربيا في الصيف الماضي، حيث يمتلك هناك منزلا، وكذلك يعشق موسيقى الفلامينجو؟! هذا هراء بلا شك! مستحيل أن يكون قد عرف كل هذا من مجرد نظرة واحدة!!

عاد نوّاف إلينا بعد أن تحدث مع الرجل، وتبدو على ملامح وجهه دهشة لا غبار عليها، يدركها ضعيف البصر من على بعد ميل!!

- «كل ما قلته عن الرجل صحيح يا دكتور... والله، لولا أنّ الرجل مرّ من أمامنا دون أن يتعرّف عليك، أو تتعرّف عليه، لقلتُ إنّك سبق، والتقيتَ به من قبل!»

مستحيل... كيف؟!

- «لا تندهش يا شيخ نواف، فالأمر لم يكن بتلك الصعوبة، وإن بدا كذلك».

- «أمانة عليك أن تخبرنا كيف فعلتها!»

- «كما قلت لك: الأمر لم يكن بتلك الصعوبة، إن كنت تدرك عمّ تبحث... كلّنا ننظر، ولكن القليل منّا يرى. الاستنتاج الدقيق هو قائم على الرؤية، والمعرفة».

- «معرفة ماذا؟» أتساءل أنا، هذه المرّة.

- «معرفة معلى ما تراه... خذ عندك هذا الرجل مثلا: لقد نظرت إليه، فرأيت شابا في الثلاثين أظافر يده اليسرى طويلة، على خلاف أظافر يده اليمنى المقصوصة، فعرفت على الفور أنّه يعزف على الجيتار الكلاسيكي الذي يتم العزف عليه بالأظافر وليس الريشة، ولذلك يطيل العازف أظافر اليد الّتي تعزف على الأوتار، ولكنّه يقص أظافر اليد الأخرى الّتي تضغط على أوتار رقبة الجيتار. ولأنّه يستخدم يده اليسرى للعزف، فسو إذن أشول. أمّا حبه لموسيقى الفلامينجو فهذا تخمين مني مبني على كون هذا النوع من الموسيقى قد نشأ في منطقة ملقا الّتي تقع فيها مدينة مربيا بجنوب إسبانيا، الّتي يمتلك فيها منزلا».

- «ولكن كيف علمت بأنّه يمتلك منزلا في مربيا؟!»

سأل نواف منذر القبّاني وكأنه يقرأ أفكاري...

- «انظر إلى الطاولة الّتي يجلس عليها الرجل، وأخبرني ماذا ترى؟»

نظر نوّاف نحو الطاولة، وكذلك ألتفت إليها أنا... توجد على

الطاولة بجانب كوب القهوة سلسلة مفاتيح بها قطعة معدنية مستطيلة، محفور عليها بخط واضح كلمة واحدة: ESPAÑA

- «تقصد سلسلة المفاتيح؟»

- «هي ذاك... محفور عليها اسم البلد باللغة والحروف الإسبانية، وليس الإنجليزية؛ هذا يوحي لي بأنّه اشتراها من إسبانيا، وليس من هنا على سبيل المثال؛ وهنا يأتي السؤال: ما الذي يجعل شخصا مثله يستخدم سلسلة مفاتيح مكتوب عليها اسم بلدة ما، إلا إذا كان قد اشترى فيها حديثا منزلا جديدا هو سعيد به، ويريد إلصاق مفاتيح منزله بهذه السلسلة الّتي تحمل اسم البلد الّذي يحبه؛ ولأنّ مربيا هي المدينة الإسبانية الّتي يذهب إليها معظم السعوديين، فكان من الأرجح أنّه اشترى منزله الإسباني هناك، وهذا يفسر كذلك سماره البرونزي الّذي أخذ يخفت قليلا، ممّا يدل على أنه قضى أيام الصيف الماضي على شواطئ مدينة ساحليّة؛ وإن نظرت إلى بنصره الأيسر، فستجد علامة بيضاء تدل على وجود دبلة زواج إلى فترة قريبة، مما يؤكد أولا لون بشرته البيضاء، وأن سماره هذا ناتج عن التشمس، والأهم من ذلك أنّه كان متزوجا إلى فترة قريبة».

- «والله عجيب يا دكتور! ولكن كيف عرفت أن لديه طفلة في الحضانة؟!»

- «هذا سهل جدا، من خلال كرسي الأطفال الزهري في



المقعد الخلفي للسيارة التي ركنها أمام المقهى، ولأنني أعرف أنه توجد حضانة قريبة من هنا، فهو في الغالب أوصل ابنته إلى الحضانة، وجاء من أجل احتساء قهوة الصباح هنا. ودعني أضيف أمرا آخر لم أذكره: على الأرجح ابنته انتقلت إلى هذه الحضانة قريبا، لأنها لو كانت تذهب إليها منذ فترة، لكان دائم التردد على قهوةٍ وكتاب، ولكان تعرّف عليك يا نوّاف عندما مرّ من أمامنا».

لم أرَ في حياتي إنسانا شاخصة عيناه كما أرى الآن على وجه نوّاف... الرجل يكاد يجن!

- «والله صح! هذا ما قاله لي بالحرف يا دكتور!! هذا غير معقول... أنت ساحر!!»

ابتسم منذر القبّاني، بعد هذا الاستعراض المذهل... لولا خوفي من أن ينفجر رأسه من المديح، لهنأته على دقّة ملاحظته، واستنتاجه الذكي، ولكنني اكتفيت بابتسامة عريضة، وهزّة للرأس، علامة عن الرضا...

- «الأمر لا يوجد فيه أي سحر يا نوّاف، وإن بدا لك كذلك في مستهل الأمر؛ لكن إن عُرف السبب، بطل العجب.... كل ما يحتاجه الأمر هو رؤية ما هو أمامك، وربط ما تراه بالمعرفة حتى تتضح لك الصورة كاملة؛ وفي بعض الأحيان، قد يكمن السر في عدم وجود الشيء، مثل قصة الكلب الشهيرة

مع شرلوك هولمز...السحر ليس مجرد طلاسم، وروابط، ولكن كذلك إيهام الآخرين بخلاف الواقع كما فعل سحرة فرعون. في نظري هذا هو السحر الأخطر، ولكن لا يُفتى، ومالك في المدينة».

نظر منذر القبّاني نحوي، وكأنّه ينتظر منّي تعليقًا على ما قال... جملته حول السحر والإيهام باغتتني، ولكن أكثر ما شدّ انتباهي هو ذكره لقصّة الكلب. لم أفهم قصده منها. لعلّي لو كنت قرأت أعمال آرثر كونان دويل، لفهمت...

– «ماذا عن قصّة الكلب؟» وجدت نفسي أسأله.

– «القصّة الشهيرة الّتي استطاع شرلوك هولمز معرفة أن القاتل هو شخص قريب جدًا من القتيل، لأن الجار لم يسمع نباح كلب القتيل في الوقت الّذي وقعت فيه الجريمة، مما يعني...».

– «أن الكلب كان يعرف القاتل جيّدا، وألف وجوده في منزل القتيل». أكمّل جملة منذر القبّاني، وكأنّي أردّدها مع نفسي، متأمّلا إيّاها.

– «أنا شخصيا أرى أنّ أجاثا كريستي برعت أكثر من آرثر كونان دويل في رواية الجريمة، خاصّة في رواياتها الّتي تتعلق بالمحقق هيركول بوارو». يُعلّق نواف.



هيركول... تذكرتُ ندى، وكلبها الصغير.

- «أجاثا كريستي روائيّة بارعة لا شك، وليس من قليل أن لُقّبت بملكة الجريمة. عن نفسي أعتقد أن روايتها: جريمة في قطار الشرق السريع، هي الأفضل».

- «هذه الرواية الّتي يكون فيها القاتل هو زوج القتيلة الذي أصيب في بداية الرواية بطلق ناري مُدبّر من قبل خطيبته السابقة باتفاق معه».

تذكرتُ ما قالته لي ندى في أول لقاء جمع بيننا، عندما ادّعيتُ أن هذه هي روايتي المفضلة لأجاثا كريستي الّتي لم أقرأ لها شيئًا!

- «لا، هذه أحداث رواية موت فوق نهر النيل... في رواية جريمة في قطار الشرق السريع، لا يوجد قاتل واحد، بل أغلب من كانوا على متن القطار مشتركون في الجريمة، وهذه هي المفاجأة».

أغلب من على القطار؟! أذكر جيدا ما قالته لي ندى حينها، وهذه ليست الأحداث الّتي ذكرتها... هل تلابس عليها الأمر، وهي الّتي قرأت كل ما كتبته أجاثا كريستي، والعاشقة لها؟!

- «بمناسبة الروايات الشهيرة، أنصحك عندما تكتب روايتك الجديدة حول الأحداث الّتي وقعت لك مؤخرا، بأن تغيّر

قليلا في ظروف مجيئك، حتّى تتفادى سخافات بعض النقاد الذين حتمًا سوف يُشبهونها بأحداث رواية: الفتاة ذات وشم التنين...».

- «الفتاة ذات وشم التنين؟» أردّد اسم الرواية الّتي أذكر ألي رأيتها بجوار رواية جريمة في قطار الشرق السريع، في مكتبة إبراهيم العاصم...ما كل هذه المصادفات العجيبة؟!

فجأة تسارعت أحداث الأيام الأخيرة أمام عينيّ، وكأنّني أشاهدها من جديد عبر شريط سينمائي، وإن كانت هذه المرّة بمنظور مختلف! أكرّر مشاهدة هذا الشريط الافتراضي، وفي كل مرّة أعود بالزمن إلى الوراء أكثر، وأكثر، حتّى وجدت نفسي قد عدت إلى الوراء عدّة سنين! فجأة بدأ كل شيء يتضح أمامي جليا، وكأنّني كنت أعيش وسط ضباب كثيف حجب عنّي الرؤية الصحيحة، إلى أن بدأ ينقشع!

تذكرت مقولة الفيلسوف الألماني شوبنهاور: كل جديد يواجه في البداية بالتهكم، ثم بالهجوم، قبل أن يصبح مقبولا لدى الجميع.... هذه هي الدورة الطبيعية لكل ما هو جديد، لكن رواية «صائد الساحرات» لم تمر بمثل هذه الدورة؛ وتقبّلها الجميع على الفور بطريقة أدهشتني! لماذا؟!

وقفت على الفور من هول الاكتشاف... ورأيت الدهشة ظاهرة

على ملامح نوّاف الخضير، ومنذر القبّاني، وكأنهما يتساءلان عن هذا الذي أصابني؟!... لكن لا يعنيني شيء الآن إلا الانفراد مع نفسي من أجل ترتيب الأفكار، وبحث بعض الأمور عبر الشبكة العنكبوتيّة... لا تزال هناك فراغات بحاجة لكي تُملأ...

- «أعتذر منكما، ولكنّني بأمس الحاجة لاستخدام تلك القاعة»، مشيرا إلى قاعة مطالعة صغيرة في زاوية المقهى.

- «ما الخطب؟! أكل شيء على ما يرام؟!» سألني نوّاف.

- «مع الأسف كل شيء ليس على ما يرام! ليس لدي الآن سوى ثمان ساعات حتّى وقت الحفل. أنا بحاجة للانفراد مع نفسي لكي أرتّب أفكاري... أعدكما بأنكما سوف تعلمان بكل شيء، ولكن ليس الآن».

اتجهت نحو القاعة الصغيرة، ثم فجأة التفت نحو نوّاف...

- «بعد إذنك، أريد الاطّلاع على رواية الفتاة ذات وشم التنين، وكذلك رواية جريمة في قطار الشرق السريع».

فسألني نوّاف مشدوهًا:

- «الآن؟!»

فأجبته دون تردّد، وقد بدأتُ أخيرًا أوقن بالحقيقة الّتي غيّبت عنّي:

- «نعم، الآن».



لو أن الحياة تسير بمقتضى الهوى، لجعلتُ الشمس فيها تضيء الطريق لكل من على دربها النيّز نوى...

لم تكن رغبتي أن أصبح أشهر روائي في العالم العربي، وجلّ ما كنت أطمح إليه أن أُسمع صوتي للآخرين، وأشاركهم أفكاري، ولكنّ الفشل المتكرّر نال منّي... ما من شيء أصعب على نفس الإنسان من مرارة الفشل، وما من شيء أجمل من حلاوة النجاح، وإن كان مصطنعا! لقد تيقنت أخيرا من الحقيقة الّتي كانت على مرأى منّي، ولم أرها. كيف يمكن للإنسان أن ينظر إلى الشيء دون أن يراه؟ كيف يمكن له أن يُصاب بالعمى، دون أن يفقد بصره؟! كنت أحسب في الماضي أن السحر هو ليس إلا ضربا من ضروب الخيال، حتّى قادتني الأحداث للاقتناع بوجوده، فاكتشفت لاحقا أن ذلك الذي اقتنعت به ليس هو السحر الحقيقي، وإنّما السحر على أصوله أسوأ بكثير، وأشدّ ضراوة! السحر لا يظهر للعيان، إنما يظلّ متواريًا عن الأنظار حتّى تنفذ خيوطه المتشابكة في كل مكان، ليُمسك بفريسته كبيت العنكبوت، فلا يكون هناك مجال للفرار!

ولكن...



يبقى دائما هناك أمل، إن نجحت الخطّة.

***

الحفلة الّتي يقيمها على شرفي إبراهيم العاصم على ضفاف بحيرة قصره تبدو في غاية الروعة. كل شيء فيها جميل، كجمال مساء هذه الليلة الربيعيّة بمدينة الرياض، الخالية من الغبار. نسمة عليلة تمدلي بشيء من التفاؤل؛ تجعلني أبتسم، وأنا أصافح المجموعة المصغّرة الّذين تمت دعوتهم من قبل صاحب القصر للاحتفاء بي، وباستفاقته، وتعافيه من وعكة السحر الّتي أصابته. تضمّنت المجموعة الأشخاص ذاتهم الذين تمنيت رؤيتهم اليوم: ندى عوض، وأخاها أيمن، وأمهما ناهد الطوخي، وأخاها نهاد الطوخي، رئيس مجلس أمناء جائزة الرواية العربية، وأخيرا وليس آخرا، الناشر العظيم صاحب الأيادي البيضاء، الّذي لولاه لما أصبحت شيئا يذكر: تركي الزايدي. فعلا، ليس هناك ما هو أجمل من تواجد جميع الأحبّاء في بقعة واحدة، في جوّ ساحر من السعادة، والوئام...

الكل سعيد لرؤيتي. جميعهم يبتسمون لي؛ وكذلك الخدم الذين يُقدّرون ما فعلته من أجل إنقاذ حياة وليّ نعمتهم. أرى سعادة غامرة على وجه هناء الحارب، مديرة القصر، وهي تصدر أوامرها لكنعد، الشغّالة الإندونيسية، الّتي رافقت إقامتي، وحرصت دوما على الإتيان بالشاي الأخضر لي مساء كل ليلة،

حتى من قبل أن أطلبه منها. ستيوارت «البتلر» الإنكليزي سعيد هو الآخر، ولأول مرّة أراه يبتسم، بعد أن ظننت أن وجهه غير قادر على رسم أي شيء يمتّ للابتسامة بصلة!

نعم، فالأجواء بحق السماء جميلة، وإن كان كل شيء على وشك أن يتغيّر.... إذ إنني أرى هناك سحبا عاصفة في الأفق القريب!

***

أُعدّت مائدة الطعام، وعليها أصناف لم آلفها من أطباق نجدية تعرّفت عليها لاحقا: الجريش، والقرصان، والمطازيز... يتوسطها خروف نعيمي مشوي، لم أذق في حياتي مثله، محاط بأرز بسمتي مُتبّل بخلطة سرّية لا يعلمها إلا طباخ القصر! اغترفت من هذه الأطباق اللذيذة بنهم لم أعهده في نفسي من ذي قبل... مالت نحوي ندى، ثم قالت بصوت هامس:

- «أشكرك على كل ما فعلته من أجلنا... لولاك لما كنّا هنا اليوم، وإن كنت لا أزال أشعر بالألم لما سوف يحدث لطنط هند. بالرغم من كل الذي فعلته مع بابا إبراهيم، ومع أيمن، إلا أنها تبقى بمثابة عمّتي... لا أعلم كيف يمكن لأخت أن تفعل هكذا مع أخيها؟! ما كل هذا الشر؟!»

- «مع الأسف الدنيا هكذا مليئة بالشرور، فوق ما تتخيلين».

أجبتها حتّى أشاطرها الهمّ الّذي تبديه.

- «أنا آسفة... لم أقصد تحويل هذا الاحتفال إلى نكد... سامحني».

ابتسمت لها، مؤكّدا أنّني لم أستأ ممّا قالت.

ثم قمت فجأة من موضعي، أمام دهشة الجميع، وقلت بصوت مسموع:

- «أيها الأصدقاء، عندي لكم جميعًا مفاجأة... هديّة بسيطة بمناسبة آخر ليلة أقضيها معكم في الرياض قبل أن أغادر إلى جدة غدا».

نظر إليّ تركي باستغراب، عاقدا حاجبيه، وكأنه يسألني عن بعد عن هذه المفاجأة المزعومة، على خلاف إبراهيم العاصم الّذي بادر على الفور بالتعليق:

- «وقوفك معنا في الأيام المريرة السابقة، هي أجمل مفاجأة يمكن للمرء أن يتمنّاها».

- «أنا لم أفعل شيئا بعد يا شيخ إبراهيم... إن كان لأحد الفضل فيما جرى، فلندى، وليس لي أنا».

أقولها من غير رياء، ثم التفتّ نحو ندى لكي أرى حمرة وجنتيها من أثر الخجل... لكم هي جميلة!

- «شكرا»، ترد عليّ بامتنان.

- «والآن أودّ استئذانكم جميعا من أجل الذهاب إلى المكتبة».

- «المكتبة؟ ما كل هذا الغموض أيها الروائي الفذ؟»

تركي لم يعد قادرا على إخفاء فضوله، وإن كنت أحسب الجميع على حالته نفسها.

- «الصبر يا عزيزي تركي، الصبر، فالمكتبة ليست ببعيدة عن هنا؛ وهناك، كل شيء سوف يتّضح... أعدك بأنها سوف تكون ليلة لن ينساها أحد!»

***

في المكتبة كانت البداية، وبها سوف تكون النهاية؛ هذا هو الوعد الّذي قطعته على نفسي، ولستُ أنا ممن يخلف الوعود...

- «سوف أحكي لكم حكاية، ألّفتها منذ ساعات فقط، أظنها سوف تنال إعجابكم جميعا، خاصّة وأنّها مليئة بالإثارة، والغموض، وكذلك العبرة...».

تحدثت واقفا، والجميع جلوس، ثم نظرت إلى نهاد الطوخي، وأكملت:

- «من يدري؟ فلعلّها، إن نشرتها، تحصل هي الأخرى على جائزة الرواية العربية».

ابتسم نهاد معلقا عليّ:

- «وحينها سوف تكون أول روائي يحصل على الجائزة مرّتين».

– «إن كان الأمر هكذا، فأنا أعترض... لأنك سوف تحرق على قرائك هنا قصة الرواية قبل أن تُنشر!»

قاطعنا تركي ممازحًا... وكأن حسّ الناشر فيه هو الذي يحركه.

– «لا تخش على رزقك يا عزيزي؛ فما سوف أحكيه لكم اليوم، لن يؤثر سلبا على مبيعات الرواية القادمة، والعكس هو الصحيح... ولكن في البداية أود استئذانكم من أجل إجراء مكالمة سريعة».

أخرجت جوّالي من جيبي، وهممت بالاتصال بالرقم المنشود، ولكن...

– «نسيت أن أشحن جوّالي. مع الأسف لا أستطيع استخدامه».

وضعته بجوار جوّال ندى على المنضدة الّتي بجانبها.

– «هل تود استخدام آيفوني؟»

سألتني ندى، وهي تناولني هاتفها الذكي... شكرتها، وأخذته منها.

– «يبدو أنها مكالمة مهمة، أم أن هذا جزء من التشويق؟»

سألتني ناهد الطوخي، فأجابها على الفور أيمن، وهو جالس بجوارها:

– «حتمًا هو جزء من التشويق... لم أعد قادرا على الانتظار!»



ناولت ندى هاتفها الذكي، وشكرتها بلطف، ثم قلت مخاطبا الجميع:

- «لا بأس، الشخص الّذي وددت الاتصال به لا يرد».

- «ومن هو ذلك الشخص الغامض يا ترى؟» بادر تركي على الفور بالسؤال.

- «سؤالك في محلّه يا تركي، ولكن الإجابة عليه لاحقًا، وليس الآن؛ فهي جزء من الحكاية.. والآن يا أصدقائي الأعزاء، وبصيغة الراوي العليم الّتي أحبها أكثر من غيرها، سوف أبدأ بسرد الحكاية لكم من البداية...».



ما الذي يقود المرء إلى التخلي عن أحلامه؟

أن يبلغ اليأس منه مبلغه؛ أو أن تكون تلك الأحلام غير متوافقة مع طبيعته... لعلّ كلا السببين ينطبقان على بطل قصتنا الذي سوف نطلق عليه اسم الروائي...

كان عرضا غريبا ذلك الذي تلقاه من الناشر المعروف، بعد ثلاث محاولات روائية فاشلة جرّعته مرارة اليأس. فهل وافق بسبب يأسه؟ أم وافق لأنه وجد ضالّته دون أن يشعر؟

– «العالم العربي بحاجة لمثل هذه النوعية من الروايات». قال له الناشر، ثم أضاف:

– «لا يوجد ما هو أكثر غموضا من عالم السحر، خاصة إذا مزج بالجريمة!»

كل شيء قد سبق الإعداد له. الخطوط العريضة للرواية تمّ وضعها من قبل مجموعة من الباحثين البارعين؛ ليته سأل عن هويّة هؤلاء الباحثين، لكان أدرك الحقيقة منذ البداية...

كتب الروائي الرواية، ونجحت كما لم تنجح رواية عربية من قبل، فتذوق لأول مرّة طعم النجاح، ويا له من طعم حلو كالعسل المصفى! ليت النجاح توقف عند حجم المبيعات المهول الذي



لم يتحقق لأي كتاب عربي من قبل، ونجحت كذلك الرواية، وهذا ما ادهشه، على الصعيد النقدي، حيث تهافت النقاد عليها من كل حدب وصوب، مُعَدّدين مزاياها، وعبقرية كاتبها! «ما كل هذا النجاح؟» أخذ يتساءل في نفسه، «هل تستحق هذه الرواية كل هذا الثناء؟!» في قرارة نفسه، كان يشعر أنها تستحق، ولكنه لم يرغب في الاعتراف بذلك، لأنّه لم يكن مستعدًا بعد لكي يصبح صائدًا للساحرات...

فازت الرواية بأكبر جائزة أدبية في العالم العربي، وبعدها مباشرة طُلب منه أن يُجَسّد شخصية بطل روايته، لكي ينقذ «رجلا كريما» من براثن «ساحر شرير»، نصب له سحرا فتّاكا سوف يقضي عليه عاجلا! الذي لم يكن يعرفه الروائي حينها، أن السحر الذي نُصب، كان هو هدفه، وليس ذلك الرجل الكريم المزعوم...

تمت دعوة الروائي من قبل صاحب القصر من أجل المكوث عنده، دون أن يعلم أحد من أفراد العائلة الغرض الحقيقي من الزيارة، ومن خلال هذه الزيارة، ومكوثه في القصر، سوف يبحث الروائي، ويقوم بمغامرته من أجل الكشف عن السر الذي لا يعلمه سوى صاحب القصر الكريم، والجاني الشرير... ألا تذكركم هذه الأحداث بأحداث مشابهة وقعت في رواية أخرى اسمها «الفتاة ذات وشم التنين»؟ لعلّها مجرد توارد خواطر... المشكلة أن صائد الساحرات المزعوم، مؤلف أشهر رواية تشويقية، ليس

من هواة قراءة هذه النوعية من الروايات، وبالتالي لم يكن يعلم أي شيء عن تشابه الأحداث الّتي كانت تجري له، مع أحداث أية رواية أخرى، وكان هذا هو المقصود.

تفاجأ الروائي عندما وجد تشابها كبيرًا بين السحر الّذي أعد لصاحب القصر، وما جاء في روايته، وإن كانت هناك اختلافات بسيطة، مثل طبيعة الأحرف الّتي تم استخدامها من أجل إتمام طلاسم السحر في روايته؛ فاستسهل، واستخدم الأحرف العبريّة، ولكن الساحر في الواقع تكبد عناء المصداقية، واستخدم الأحرف الأكثر دقة، ألا وهي الآراميّة. هذا الفرق البسيط، كان كفيلا بأن يجعل الروائي يصدق بأن السحر المزعوم هذا لم يكن مجرد مزحة، ولكنّه عمل شرير أريد من خلاله إيذاء مضيفه، صاحب القصر «المسكين» ، مما جعل صائد الساحرات المزعوم يتقمص الدور، الّذي جيء به من أجله، ليبذل كل جهده، بمعونة ربيبة صاحب القصر الجميلة المستكينة، من أجل إنقاذه.

تشير الدلائل إلى أخت صاحب القصر الّتي تجيد اللّغة الآرامية، خاصة عندما يعلم الروائي أنّها أوقعت في حبالها شابا وسيما في منتصف عمرها، هو أيضا ربيب أخيها؛ ولكن شكوكه تتحول إلى يقين عندما يغضبها، وبعدها مباشرة، في الليلة ذاتها ، تتملّكه الكوابيس حتّى كادت تقضي عليه، فيكتشف حين يستيقظ بصعوبة، أن العلامة السحرية ذاتها الّتي تسببت



في عناء صاحب القصر، قد وُضعت كذلك تحت سريره هو، فأدرك حيلها، أو هكذا حسب، أن أخت صاحب القصر، الساحرة المزعومة، كانت على علم مُسبق بسبب مجيئه، لذلك حاولت إيذاءه منذ أول ليلة من وصوله، أثناء قدومه من المطار، عبر سائق مسحور؛ وبعدها حاولت سحره هو الآخر من أجل القضاء عليه، كما فعلت مع أخيها؛ أو من أجل ترويعه، على أقل تقدير!

المسكين مع هول المفاجأة، وقلّة الخبرة، لم يتساءل عن أمور جرت له، ومن حوله، كانت كفيلة بأن تلقي بعض الضوء على هذه المشاهد السوريالية العجيبة، الّتي كأنها ليست من هذا العصر والزمان.. مثلا، هو لم يكلف نفسه عناء السؤال عن سبب عدم نباح كلب الربيبة الجميلة لوجود الناشر الذي من المفترض أنه لا يعرفها معرفة جيدة؛ فالناشر على حد زعمه، لم يلتق بربيبة صاحب القصر إلا مرات قليلة جدًا، وبالتالي لا تربطه بها صلة تجعل الكلب يألف وجوده، على خلاف ما هو واقع.. سؤال آخر لم يتكبد الروائي عناء الإجابة عنه في حيله: ما سر هذه المصادفة العجيبة؟ حيث إن شقيق زوجة مضيفه هو ذاته رئيس مجلس أمناء الجائزة الّتي حصل عليها؛ وأحد أعضاء لجنة التحكيم، هو زوجها السابق، ووالد ابنها الذي وقع في شباك أخت زوجها الحالي، صاحب القصر، ووالد ابنتها الّتي أخذ الروائي يهيم بها.



لكن الروائي كان مشغولا بسؤال أهم، يترتب عليه مصير الرجل المسكين الذي استضافه في قصره وائتمنه على سره، وكذلك مصيره هو شخصيا بعد أن اكتشف علامة الرابط السحري تحت سريره: أين دُفنت الروابط السحرية؟ لم يكن الروائي بحاجة للبحث بعيدا عن إجابة للسؤال، حيث إنها مذكورة في روايته الشهيرة.. المسحور عادة ما ينجذب إلى المكان الّذي يوجد فيه الرابط السحري الخاص به.... إذن هو البيت القديم المهجور، الذي ذهب إليه العاشق الولهان، ربيب صاحب القصر، وكذلك السائق السوداني الّذي أقلّه من المطار؛ فكلاهما مسحوران!

اكتشف الروائي، بمساعدة ربيبة صاحب القصر الجميلة، المكان الذي دُفنت فيه الروابط السحرية، وتأكد من أن أخت المسحور هي الساحرة... أو هكذا حسب.

التفاصيل الصغيرة...

على المرء أن ينظر إلى التفاصيل الصغيرة، ويتساءل عن معناها، إن رغب في التوصل إلى الحقيقة. هذا ما أخذ يدركه الروائي، مع مرور الوقت. تلك التفاصيل الصغيرة كقطع الأحجية المتناثرة، كانت بحاجة إلى النظر، والتمحيص من أجل صنع صورة واضحة منها للحقيقة الغائبة، أو بالأصح، للحقيقة الّتي غيّبت عن عمد؛ وكأي أحجية صعبة، هناك دائما ما تكون قطعة محورية تتمركز حولها باقي القطع.



رواية «جريمة في قطار الشرق السريع»... لماذا حرّفت ربيبة صاحب القصر أحداثها، واستبدلتها بأحداث رواية «موت فوق نهر النيل» ؟ هل اختلط عليها الأمر، وهي العاشقة لروايات أجاثا كريستي؟ هل يمكن لقارئة نهمة مثلها لهذه النوعية من الروايات، أن تقوم بخلط فادح كهذا؟ الإجابة عن هذه الأسئلة اتّضحت للروائي، عندما اطّلع على الرواية المذكورة، وأدرك أحداثها المثيرة، فانزاح الستار، وأميط اللثام، وأخذت تترابط قطع الأحجية؛ لتظهر له رويدا، الصورة الّتي كانت غائبة عنه منذ البداية... صورة الحقيقة.. صورة المؤامرة!

***

لا يوجد مجرم واحد... لا يوجد ساحر واحد... لا يوجد متآمر واحد؛ إنما توجد مجموعة من المتآمرين؛ جميعهم اشتركوا في تنفيذ هذه المؤامرة الإجرامية الّتي بدأت خيوطها ليس الآن؛ ولكن منذ سنين، مع بداية أحداث قصتنا هذه؛ والإضافة العبقرية الّتي تنم عن تفوق الطالب على أستاذه، أو القارئ على المقروء له، هي في جعل الضحية تبدو، وكأنها الجاني! نعم، فصاحب القصر لم يكن منذ البداية هو المستهدف، بل أخته! أخته الّتي حافظت على إرث أبيها، كحفاظها على السلسلة الّتي أهداها لها عندما كانت طفلة صغيرة؛ على خلاف أخيها الّذي خسر جلّ ثروته في صفقات فاسدة مثله!



يُقال: إذا بحثنا وراء أية جريمة، فسنجد خلفها إما الحقد، وإما الجشع؛ فما بالنا إذا اجتمع الأمران معا؟! وكيف يكون الحال إذا تظافرت العقول، واستُخدم الخيال الجامح من أجل رسم خطوط جريمة كاملة، جهنميّة، خبيثة، لتظهر الضحية من خلالها، وكأنها هي الجانية؟! فتُعدم بالقانون، ويرثها الجناة الحقيقيون!

نعود الآن مرة أخرى إلى بداية الحكاية من أجل إظهار الحقيقة، عبر تفكيك خيوط المؤامرة؛ حيث كان ينبغي للناشر، أحد أضلاع المؤامرة الأساسيِّين، صديق صاحب القصر المقرَّب، والصديق الحميم لربيبته، أن يختار روائيا مغمورا، فاشلا، يائسا، لا يفقه شيئا من أدب الجريمة، والإثارة، والخيال، من أجل صناعة رواية تتحدث عن السحر الذي يجهله تماما، عبر مُخطَّط درامي تم إمداده به، وبهذا يتم تأهيله للغرض الّذي تم اختياره من أجله: أن يصبح صائدا وهميًا للساحرات... وكأي صفقة رابحة يُراد جَنْي المال الكثير منها، لا بد من الصرف عليها أولا، وإلى حد الإغداق، إن اقتضى الأمر؛ فكان لا بد للرواية أن تلجح نجاحا باهرا، حتّى يصبح كاتبها علما من الأعلام، وأسطورة من الأساطير... حتّى يصبح هو التجسيد الحي لصائد الساحرات!

تمّ شراء نسخ كثيرة للرواية من المكتبات بطريقة مُدبَّرة على فترات، لتعتلي قوائم الكتب الأكثر مبيعًا، فيتم إيهام العوام



بنجاحها الساحق ليشتروها، فتظلّ على إثر ذلك في المرتبة الأولى من قوائم الكتب الأكثر مبيعًا لفترة لا حدود لها! حلقة مفرغة تكاد لا تنتهي، تهدف إلى بيع أكبر كم ممكن من الرواية حتّى تلفت الأنظار إليها؛ ويصبح الأمر بذلك أشبه بكرة الثلج الّتي كلما تدرّجت، ازداد حجمها!

وحتى تكتمل الأسطورة، تم اللجوء إلى شقيق زوجة صاحب القصر، بعد أن أغري باقتسام الكعكة الثميلة، من أجل الزج بوالد ربيبة صاحب القصر في لجنة التحكيم، لغرض اختيار الرواية المَغنيَة للفوز بالجائزة الكبرى.. متآمر آخر، يقوم بدوره في المؤامرة الخبيثة! وبعد أن أصبح الروائي شبه أسطورة حيّة، كان من غير المستبعد الاستعانة به من أجل كشف لغز السحر المشابه لذلك الّذي جاء في الرواية. ذلك اللغز الذي رُتب له لكي يقود صائد الساحرات إلى شخص بعينه.. أخت صاحب القصر البريئة الّتي أوقعها في حباله ربيب صاحب القصر، وتظاهر بأنه مُتيّم بها إلى حد الهوس، وكأنّه قد سُحر! وكما جاء في الرواية، المسحور ينجذب إلى المكان الذي دُفن فيه الرابط السحري. هذا المبدأ هو الذي قاد صائد الساحرات إلى الأرض الّتي تملكها أخت صاحب القصر، وهناك تم العثور على جميع الروابط السحرية، وعليها رمز الساحر، كما في الرواية.... دليل إدانتها؛ ولكي تثبت عليها التهمة أكثر، وضع العاشق المُزيّف في مكتبتها الخاصة،



طلاسم سحرية مُفبركة، وكأنها كانت تعدّ عملا سحريّا جديدا، قبل أن يكتشفها صائد الساحرات الشهير، ليلقذ صاحب القصر، وأسرته من براثن شرّها!

يا لها من مؤامرة خبيثة كادت تنجح، لولا التفاصيل الصغيرة...

الكلب الذي لم ينبح لوجود الناشر... لأنه اعتاد عليه.

الصيدليّة التي أغلقت... لأن صاحب القصر كان يعاني من خسائر مادّية متراكمة.

المنزل القديم الّذي تمتلكه أخت صاحب القصر، والّذي سيُقام مكانه مشروع ثقافي كبير سوف يُحيي المنطقة، ويرفع من أسعار الأراضي المجاورة الّتي ورثتها كذلك مع المنزل.... ثروة هائلة ستكون من نصيب وريثها الشرعي، بعدما تُعدم بتهمة السحر، ومحاولة القتل.

وهناك طبعا الشاي الأخضر! الشاي الأخضر الّذي كانت تجلبه الخادمة الإندونيسية للروائي كلّ ليلة قبل أن ينام؛ ولكن قبل الحديث عن الشاي الأخضر، وأهميته، لا بد من طرح سؤال مشروع: إن لم يكن الروائي قد سُحر بالفعل من قبل أخت صاحب القصر، فهل كان الكابوس المُعقّد مجرد مصادفة؟ الإجابة حتمًا لا... فالمصادفة ليست لها مكان في هذه الرواية. الكابوس دُبّر له، ولكن ليس عن طريق الطلاسم والروابط السحرية، بل عن طريق سحر آخر اسمه الصيدلة!

باكسيل- دواء شهير لمعالجة الاكتئاب يُمكن إذابته في أي سائل، من أهم أعراضه الجانبية إحداث الكوابيس المُعقَّدة... معلومة يعرفها كل من درس الصيدلة، مثل ربيب صاحب القصر، المتآمر! كما يستطيع الوصول إليها كل من يبحث في محرك جوجل عن كيفية إحداث الكوابيس عبر العقاقير، مثل الروائي!

وهنا تظهر أهميّة الشاي الأخضر الذي كانت تحرص الخادمة الإندونيسية على الإتيان به للروائي كل ليلة... وكرواية «جريمة في قطار الشرق السريع» ، لا تكاد تكتشف متآمرا في الجريمة المرتكبة، حتّى يظهر لك متآمر آخر!

الطبيب الذي أوهم الروائي بأن صاحب القصر يعاني من مرض غريب ليس له وصف...

السائق السوداني الذي تظاهر بأنه مسحور لكي يخدع الروائي...

«البتلر» الذي كان على دراية بمهمة الخادمة الإندونيسية...

مديرة القصر التي نشقت مع السائق فعلته...

مؤامرة شيطانية محبوكة بحنكة خبيثة؛ ولكن المتآمرين وقعوا في خطأ فادح، أوقع بهم جميعًا.. لقد صنعوا من الروائي البائس صائدًا للساحرات بحقّ، فتمكّن من اصطيادهم في النهاية!



٢٨

- «براڤو!»

تصفيق صادر من ندى وسط صمت، وذهول الآخرين، وكأنها تسخر مني لاكتشافي الحقيقة بعد فوات الأوان... سقطتي الكبرى، التي لن أغفرها لنفسي طالما حييت، أني سمحت لنفسي بأن أخدع من قبل هذه المرأة!

- «براڤو أيها الروائي الفذ؛ أو دعني بالأحرى أقول: يا صائد الساحرات الخطير... براڤو! أخيرًا تنبهتَ للخديعة. لقد كسبتُ رهاني مع تركي، حيث أخبرته بأنك سوف تكتشف الخديعة لاحقًا، ولكن بعد فوات الأوان، على خلاف ما كان يعتقده هو. من الواضح أنّ رأيه فيك متدنٍ جدًا. أما أنا...».

- «ندى! كُفّي عن الحديث!» حاول تركي مقاطعة ندى، ولكنها لم تأبه له، واسترسلت في الكلام:

- «أمّا أنا فبعد قراءتي لروايتك الأخيرة، أدركت أنّك بحق قد خُلقت من أجل كتابة هذه النوعية من الروايات... أنت بارع جدًا، وقد أثبتَّ لنا ذلك الآن!»

- «أنا لست على استعداد لأسمع مثل هذا الهراء!» انتفض نهاد الطوخي من موضعه، وقام متجهًا خارج المكتبة.

- «أونكل نهاد هو دائمًا هكذا، شديد الهلع. لولا المليون دولار الّتي أعطاها له بابا إبراهيم، لما وافق على مشاركتنا الخطّة.. عفوًا المؤامرة، كما أطلقتَ عليها».

- «كفى يا لدى!» أخذ إبراهيم العاصم مبادرة الحديث، بعد أن قام من جوار زوجته الّتي آثرت اختيار الصمت ملاذًا لها، أثناء ترقبها الموقف بوجه شاحب.

- «ما الّذي تريده بالضبط من هذا الهراء؟! أهي محاولة ابتزاز منك؟! ألم يكفك النجاح الّذي حصلت عليه بفضلي، بعد أن كنت مغمورًا، معدمًا؟!»

- «لقد صدّقتك، وتعاطفت معك، وطيلة الوقت كنت تخدعني أنت، وتركي، وأسرتك... كل هذا من أجل القضاء على أختك، الّتي لم تفعل لك شيئًا! هل يمكن للطمع، والجشع أن يصل إلى هذا الحد؟!»

- «أرجوك! احفظ لسانك، وتذكر أنّك هنا ضيف عندي! ثم أي أخت هذه الّتي تتحدث عنها؟! الّتي أنجبها أبي من زوجته الثانية الّتي فضّلها على أمي؟! الأخت الّتي دلّلها، وبدّاها على ابنه البكر؟! الّتي وهبها نصف ثروته في حياته؟! الّتي رفضت مساعدتي، وأنا أمرّ بضائقة مالية تكاد تهدم حياتي الّتي بنيتها دون كلل، أو ملل طيلة السنين الماضية؟! عن أي أخت تتحدث؟! أجبني؟!»

- «مهما فعلت، فهي لا تستحق مثل هذه النهاية المأساوية...».

- «بل تستحق!» تقاطع ندى حديثي لكي تؤازر زوج أمها...

- «تستحق من أجل أنانيتها، وغطرستها! نعم أنا التي رسمت خطوط هذه المؤامرة؛ وأنا التي ساهمت في اختيارك أنت دونًا عن غيرك لكي نصنع منك أسطورة يصدقها الجميع لاحقًا عندما تُدين بنفسك الساحرة التي حاولت إيذاء الشيخ إبراهيم الغاصم، المسحور، المسكين! والآن، وبعد أن تمّ القبض عليها، سوف تحاكم قريبًا بتهمة السحر، وسوف تدان بفضل ما اكتشفته أنت من روابط، وطلاسم سحرية؛ لتُعدم هي، ونرثها نحن!».

- «أنت لن ترثي شيئًا».

- «صحيح، بابا إبراهيم هو الذي سوف يرث بصفته أخاها، وهذا يكفينا جميعًا».

- «هذا ليس ما قصدته... فلن يرثها أي أحد منكم».

نظرت ندى إلى زوج أمها، وقد بدا عليه القلق، ثم أطلقت ضحكة كبيرة مستفزة...

- «ولماذا يا ترى؟ هل ستذهب إلى الهيئة، وتخبرهم بأنك كنت مغفلًا، وقد تمّ خداعك، وأننا نحن الذين رتّبنا هذه المؤامرة الكبرى لكي ندين هند؟ هل تظنهم سوف يصدقونك؟

ستكون كلمتك مقابل كلمتنا جميعًا... واتهامك هذا لنا، والذي لن تجد عليه دليلا ملموسًا، سوف يدينك أنت، ويحطّم مستقبلك إلى الأبد!»

لم أتمالك نفسي هنا، وابتسمت على الفور من نشوة الانتصار. لكم أود أن تستمر هذه المسرحية المسلّية أكثر، فهي بحق ممتعة إلى أبعد الحدود؛ ولكن مع الأسف، كأي تجربة ماتعة، فلا بد لها من نهاية...

- «لن أكون بحاجة للذهاب إلى أي مكان، أو الإفصاح عن أي شيء. أظنّ أن اعترافك المسجل هو الدليل الكافي الّذي تحتاجه الهيئة من أجل الإفراج عن هند العاصم... أوليس كذلك يا شيخ أحمد؟»

نظر الجميع نحوي بتعجّب، غير مدركين ما قد جرى توًا... هرع على الفور أيمن لحوي، وتبعه تركي، وأمسكا بي من أجل تفتيشي بحثا عن جهاز تسجيل؛ لكنّهما لم يجدا شيئًا...

- «من حسن الحظ أنك لا تقرئين الروايات العربية يا ندى، كما أخبرتني من قبل، وإلا كنت اكتشفت الخدعة ألتي استلهمتها من رواية عودة الغائب... عندما استخدمت جوّالك من أجل إجراء مكالمة، قمت بتغيير الإعدادات بحيث يستقبل هاتفك المكالمات تلقائيًا بعد رنة واحدة؛ كما قمت بتحويل رنّته إلى الصامت... لقد قمت بالاتفاق



مسبقا مع الشيخ أحمد، بأن يتّصل على الرقم الذي سوف يتلقى منه رنّة واحدة في مثل هذا الوقت، ويقوم بعد ذلك بتسجيل الحديث الّذي سيسمعه كاملا عبر سمّاعة هاتفك الذكي».

هرعت ندى إلى جوّالها، وفتحته للتأكد من أنّه بالفعل على اتصال برقم غريب، غير مسجّل عندها. على الفور، وبغضب شديد، ألقت به نحوي، وقذفتني بأوسخ العبارات؛ لكنّ هاتفها الذكي أبى أن يصيبني، وأصاب الحائط، ليتهشم قطعًا على الأرض..

وجدت نفسي على الفور أقول:

- «من حسن الحظ أنك ثرثارة، وإلّا ما كانت خطّتي لتنجح! المعذرة... لقد نسيت أن الحظ ليس له نصيب في قصّتنا هذه... ولقد راهنت على غرورك يا ندى، وقد كسبت الرهان!»

ابتسامة أرسمها على وجهي، وأنا أنظر إلى وجوههم الحائرة، الوجلة، بعد أن أدركوا بأنّهم خسروا كل شيء.

يا إلهي! كم هو حلو طعم الانتصار...



لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها، ولكن أخلاق الرجال تضيق...

أتذكّر أبيات عمرو بن الأهتم، بعد مرور عام على تلك الأحداث الّتي غيّرتني إلى الأبد، وأنا أتسلم الجائزة الكبرى للرواية العربية، للمرّة الثانية على التوالي؛ إنجاز لم يسبقني إليه أحد من قبل... لكنني هذه المرّة أشعر بسعادة غامرة، متصالحا مع نفسي، ولم أعد متعاليًا عليها!

آه منها الحياة... دار هناء، وشقاء؛ دار كرّ، وفرّ؛ ليلها طويل عندما نحب، ونهارها قصير عندما نفرح... قد يستلهم الشاعر منها قصيدته، والقاصّ قصّته، والراوي روايته، ولكنها تبقى في كثير من الأحيان عصية على الفهم، وفي هذا يكمن سرّ جمالها. لقد عشت أحداث رواية ألّفتها، كما لم أعش أحداث حياتي الّتي ألفتها، فتركتني إنسانا آخر غير الذي كنت أعرفه. أحب النهايات السعيدة؛ ومن لا يحبها؟ وأجمل ما في نهاية قصّتي هذه، أنّني أخيرًا أدركت من أكون...

فأنا لست إلا صائد الساحرات...

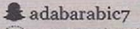
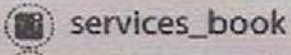
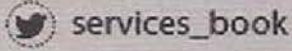
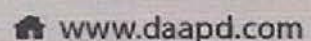
بل جميع السحرة!

قال الساحر العظيم لخدّامه، وأتباعه المتربعين من حوله:

-"السحر حاله كحال بيت العنكبوت؛ كلّما تشابكت خيوطه، كان وقعه أشدّ أثرا ...."

ليس كل ما هو ظاهر للعيان، صادق البيان!

منذر القباني


adabarabic7

services_book

services_book

www.daapd.com
